وثائق تاريخية جديدة
عن عصر المرابطين

لست أضيف جديداً إذا قلت إن تاريخ دولة المرابطين فى المغرب والأندلس ما زال من أغمض فترات تاريخ الغرب الإسلامى على الرغم مما أحرزته النصوص والدراسات الأندلسية فى السنوات الأخيرة من اهتمام كبير وتقدم لا بأس به .

والسبب فى ذلك جلىٌّ بيِّن ، إذ لم يصلنا من الكتب التاريخية التى تناولت عهد المرابطين إلا شىء يسير نجده فى ثنايا ما كتب عن تاريخ المغرب مثل ما ورد فى « الحلل الموشية » لمؤلف مجهول و « المعجب » لعبد الواحد المراكشى و « روض القرطاس » لابن أبى زرع و « الاستقصا » للسلاوى و « العبر » لابن خلدون ، وهى كتب تتحدث عن المرابطين فى إيجاز شديد لا يكاد يشفى غلة ، كما أن كثيراً منها متأخر لا يكاد يمدنا بتفصيل واف عن أخبار هذه الدولة التى قدمت للاسلام فى المغرب والأندلس أجل الخدمات ، وجاهدت فى سبيله أعظم الجهاد .

ولاشك فى أن نبأ العثور على الجزء الخاص بالمرابطين من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى سوف يسد جانبا كبيراً من هذا الفراغ ، وقد كان من دواعى الغبطة أن نخبة من علماء المغرب يقومون الآن بإخراج هذا الكتاب إلى النور بالاشتراك مع المستشرق الإسبانى الأستاذ أمبروسيو أويثى الذى تخصص فى تاريخ المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس[1] .

---

(١) أذكر بهذه المناسبة أننى تمكنت من الاطلاع على هذا الجزء المرابطى من « البيان المغرب » بعد أن مضيت شوطاً فى هذا البحث ، وكان الفضل فى ذلك يرجع إلى تلطف الأستاذ أويثى الذى تكرم على المعهد بتقديم نسخته التى كتبها بخطه من هذا الكتاب إلى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد ، فللأستاذين الكريمين خالص الشكر على ذلك .

أما فى الأبحاث الحديثة فلم تكن الدولة المرابطية أسعد حظا فى الحكم الذى استحقته من أصحاب هذه الأبحاث ، وقد سبق لأستاذنا الدكتور حسين مؤنس أن بين ما فى كتابات معظم المؤرخين الأوربيين المحدثين من حملة ظالمة على المرابطين كان الدافع إليها إما التعصب الدينى أو الكراهية التى كادت تكون « شخصية » كما نرى فيما كتبه عنهم الباحث الهولندى العظيم راينهارت دوزى(١) .

ولما كانت المادة التاريخية المبعثرة فى المراجع الأندلسية والمغربية ضئيلة نزرة فقد كان من المتعين على دارس هذه الفترة أن يجمع كل الوثائق التى وردت فى ثنايا كتب الأدب والتراجم المطبوعة والتى لا زالت مخطوطة بعد ، إذ لاشك فى قيمة هذه الوثائق فى المساهمة بإعادة بناء التاريخ المرابطى بشكل يمكن من كتابته على نحو أقرب إلى الدقة وأبعد عن الاشتطاط .

وقد قام الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بتوجيه نظر الباحثين إلى قيمة مجموعتين من الوثائق المرابطية عثر عليهما فى بعض مخطوطات مكتبة الاسكوريال ، وقام هو نفسه بنشر سلسلة منها يتبين لقارئها مدى ما تشتمل عليه من أخبار تلقى كثيرا من الضوء على هذه الفترة(٢) .

وهكذا بدأت بعض نواحى التاريخ المرابطى تتضح ، وإن ظل الكثير منها ما زال يكتنفه الغموض ، هذا على الرغم من المحاولات التى اضطلع بها بعض

---

(١) الدكتور حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى (سنة ١٩٥٤) ، ص ٥٧ — ٥٨

(٢) نشر الدكتور حسين مؤنس المجموعة الأولى من هذه الوثائق تحت عنوان « الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين مع أربع وثائق جديدة » فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٤٩ ، ص ٩١ — ١٤٣ ؛ والمجموعة الثانية فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ تحت العنوان الذى أوردناه فى الحاشية السابقة ، ص ٥٥ — ٨٤ ؛ والمجموعة الثالثة فى المجلد الثالث من هذه الصحيفة ، سنة ١٩٥٥ ، ص ٩٧ — ١٤٠ تحت عنوان « نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين » .

الباحثين المحدثين من أجل كتابة « تاريخ » شامل لدولة المرابطين[1] ، وهى محاولات نراها — رغم قيمتها والجهد المبذول فيها — سابقة لأوانها ، إذ أنه ينبغى أولا العمل على جمع كل النصوص المتعلقة بالمرابطين فى الكتب المطبوعة والمخطوطة ، مما لا غنى للمؤرخ الحديث عن الاطلاع عليه والانتفاع منه إذا أريد كتابة تاريخ علمى أقرب ما يكون إلى الكمال لهذه الدولة .

وقد كان من بين النوادر المخطوطة التى قدر لمعهد الدراسات الإسلامية فى مدريد أخيرا أن يحصل عليها من تركة المستشرق الفرنسى الأستاذ ليفى بروفنسال بعد وفاته فى سنة ١٩٥٦ — كتاب مخطوط فيه مجموعة من الرسائل السياسية والأدبية القيمة مما كتب عن سلاطين المغرب والأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين خلا عدد قليل لا يتجاوز أربع رسائل مما حرره كتاب مشارقة .

وكان الأستاذ جورج كولان قد حصل على هذه النسخة المخطوطة فى فاس فى نحو سنة ١٩٢٦ ، وأعارها الأستاذ ليفى بروفنسال ، فاستخرج هذا منها الرسائل المتعلقة بتاريخ الموحدين ونشر نصها العربى فى الرباط فى سنة ١٩٤١ بعد أن أضاف إليها نص رسالة موحدية استخرجها من كتاب « صبح الأعشى » للقلقشندى[2]؛ ثم أتبع المستشرق الفرنسى هذه الطبعة بترجمة فرنسية لتلك الرسائل السبع والثلاثين مع دراسة سياسية تاريخية نشرت فى مجلة « إسبريس »[3] .

(١) نذكر من هذه المحاولات فى المكتبة العربية الحديثة كتاب الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود عن « قيام دولة المرابطين » ، القاهرة سنة ١٩٥٧ ، وهو بحث لا يتناول التاريخ المرابطى كله بل هو كما يدل عليه عنوانه خاص بالفترة الأولى من تاريخهم ، ومن الكتب الأوربية البحث الذى وضعه المستشرق الإسبانى الشاب بوسك بيلا تحت عنوان « المرابطون » ، نشر معهد الجنرال فرانكو للدراسات والأبحاث الاندلسية ، ط. تطوان سنة ١٩٥٦ : Jacinto Bosch Vila: *Los Almorávides,* ed. Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Arabe; Tetuán, 1956.

(٢) نشر هذا النص تحت عنوان « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » ، الجزء العاشر من مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، الرباط سنة ١٩٤١

(٣) E. Lévi-Provençal: *Un recueil de lettres officielles almohades. Etude diplomatique et historique,* Hespéris, t. XXVIII, 1941, pp. 1—80.

وقد بقيت من المخطوطة بعد ذلك الرسائل المشرقية الأربع التى أشرنا إليها ، ومنها اثنتان للكاتب أبى اسحاق ابراهيم الصابى وزير الدولة البويهية ، والأخريان للكاتب عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل فى فتح بيت المقدس ؛ ثم اثنتان وعشرون رسالة كلها من عصر المرابطين فيما عدا رسالة واحدة لأبى حفص ابن برد المعروف بابن برد الأصغر ، وهو من كتاب عصر ملوك الطوائف .

وقد رأيت أن أستخرج الوثائق المرابطية التى تركها ليفى بروفنسال من هذا المجموع فأنشرها هنا ، وهى كما ذكرت إحدى وعشرون رسالة ، وقد ألحقت بها كذلك رسالة ابن برد المنوه بها .

المخطوط

أما النسخة المخطوطة التى اسْتُخْرِجَتْ منها تلك الرسائل سواء منها الموحدية التى نشرها ليفى بروفنسال أو المرابطية التى هى موضوع هذا البحث فإنها مبتورة الأول والآخر مما يتعذر معه معرفة اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، وهى تقع فى ١١٨ ورقة حفظت كلها فى حالة جيدة ، وأما الخط فمغربى متوسط الجودة ، وتبلغ مساحة الورقة نحو ٢٠×١٨ سنتيمترا ، ومسطرتها تتراوح بين ٢٨ و ٢١ سطراً فى الصفحة ، ومتوسط عدد الكلمات نحو إحدى عشرة أو اثنتى عشرة كلمة ، وقد كتبت عناوين الرسائل فى كثير من المواضع بمداد أحمر[1] .

وتقع مجموعة الرسائل التى أنشرها هنا بين وجه الورقة رقم ٧٦ وظهر الورقة ٨٧ من الأصل المخطوط .

---

(١) أوردت هذا الوصف المخطوط إذ أن الأستاذ ليفى بروفنسال لم يتحدث عن ذلك فى مقدمة نشرته للنص العربى لمجموع الرسائل الموحدية ولا فى ترجمته الفرنسية لها ، وكان قد اعتذر عن ذلك فى تقديمه لتلك الترجمة بأن المخطوط لم يكن بين يديه فى وقت كتابته لها . انظر *Un recueil de lettres officielles...*, p. 3, n. 6.

كتاب الرسائل

عدد الرسائل كما ذكرنا اثنتان وعشرون ليست فيها إلا واحدة لم ينص على كاتبها ، أما الباقية فمنها واحدة لأبى حفص ابن برد ، وسائرها مما كتبه كتاب مرابطيون بين سنتى ٤٩٩ و ٥٢٣ هـ . (١١٠٦—١١٢٩ م) .

أما ابن برد فهو الكاتب الوحيد الذى لا نستطيع أن نعده من كتاب المرابطين ، إذ أنه لم يدرك أيامهم ، وهو أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن برد ، ويلقب بالأصغر تمييزاً له عن جده كاتب الدولة العامرية احمد بن برد الأكبر[١] . وأسرة بنى برد تنتمى بالولاء إلى بنى شهيد وزراء الخلافة الأموية والدولة العامرية بالأندلس ، أما أبو حفص هذا فقد تربى فى كنف جده ابن برد الذى كان رئيس ديوان الإنشاء فى دولة عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبى عامر ، والذى كتب بعد ذلك لبعض خلفاء عصر الفتنة وتوفى بسرقسطة فى سنة ٤١٨ (١٠٢٧)[٢] ، كذلك درس على أبيه محمد بن أحمد بن برد الذى نقل ابن الأبار أنه كان من ذوى الأدب والنباهة وإن لم يبلغ فى ذلك شهرة أبيه ولا ابنه[٣] . وقد انتقل ابن برد الأصغر بعد الفتنة

(١) فى ترجمة ابن برد الأصغر انظر : الحميدى : جذوة المقتبس ، ترجمة ١٩٢ ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ٢/١٨ — ٥٢ ؛ الضبى : بغية الملتمس ، ترجمة ٣٥٤ ؛ الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس ص ٢٧ — ٢٨ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٨٦ — ٩١ ؛ ابن سعيد : رايات المبرزين ص ٤٠ — ٤١ ؛ المقرى : نفح الطيب ٥/٨٧ — ٨٨ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ٥/٤١ — ٤٣ ؛ وانظر كذلك ما كتبه نيكل فى « الشعر الأندلسى » ، ص ١٢١ ؛ والبحث الذى أعده الأستاذ فرناندو دى لا جرانخا تحت عنوان « رسالتان لأبى حفص ابن برد الأصغر » ، وهو دراسة ستظهر فى المجلد الخامس والعشرين من مجلة «الأندلس» : Fernando de la Granja: *Dos epístolas de Abū Ḥafṣ Ibn Burd al-Aṣgar*, Al-Andalus, XXV (1960), fasc. II, p. 383 ss.

(٢) انظر فى ترجمة ابن برد الأكبر : ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١/٨٤ — ١١٠ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ٧٢ ؛ الضبى : بغية الملتمس ، ترجمة ٣٨٧

(٣) التكملة ، ترجمة ٤٣٥

القرطبية إلى إشبيلية ، إذ أننا نراه فى بلاط القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، وكان هو الذى كتب لابن عباد عقد البيعة التى أعلنها لهشام بن الحكم الذى زعم ظهوره فى إشبيلية ودعا الناس إلى الدخول فى طاعته فى سنة ٤٢٧ (١٠٣٥)[١] . ولعل ابن برد تقلبت به الحال بين بعض ملوك الطوائف الآخرين حتى نراه أخيرا فى المرية لدى ملكها أبى الأحوص معن بن محمد بن صمادح التجيبى الذى ولى أمر هذه المملكة فى سنة ٤٣٣ (١٠٤١) ، ولهذا الملك ألف ابن برد كتابه « سر الأدب وسبك الذهب » على ما يذكر ابن بسام . ويظهر أن ابن برد انتقل إلى المرية مع أبيه وسائر أفراد أسرته واستقر بها ولم يدعها إلى غيرها[٢] ، على أن عمره لم يطل إذ أنه توفى بالمرية فى حياة أبيه سنة ٤٤٥ (١٠٥٣) على ما يذكر ابن الأبار[٣] .

أما الرسائل العشرون الباقية فكلها مما تولى تحريره كتاب أندلسيون نبغوا فى دول ملوك الطوائف ثم عملوا بعد ذلك فى خدمة الدولة المرابطية بعد أن ضم يوسف بن تاشفين الشطر الأكبر من الأندلس إلى الامبراطورية المغربية .

وأول هؤلاء الكتاب ابن القصيرة الذى له فى هذا المجموع أكبر عدد من الرسائل إذ أنه يبلغ تسعا . وهو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعى الإشبيلى المعروف بابن القصيرة[٤]، نشأ فى دولة المعتضد بن عباد ملك إشبيلية ،

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/١٩٠

(٢) يذكر الحميدى فى ترجمته (رقم ١٩٢) أنه — أى الحميدى — شاهده بعد سنة ٤٤٠ غير مرة زائراً لأبى محمد ابن حزم .

(٣) التكملة ، ترجمة ٤٣٥ ؛ وابن الابار هو المؤرخ الوحيد الذى أورد هذا التاريخ نقلا عن ابن حيان فيما يظهر .

(٤) فى ترجمة ابن القصيرة انظر : ابن بشكوال ، ترجمة ١١٣٧ ؛ الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١٠٤ — ١٠٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٥٠ — ٣٥١ ؛ ابن بسام : الذخيرة (مخطوطة بغداد) ق ٢ ، ص ١٥١ — ١٨٥ ؛ عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٦٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة (مخطوطة الأسكوريال رقم ١٧٦٣) ص ٦٤ — ٦٥ ؛ وانظر كذلك :
R. Dozy: *Historia Abbadidarum*, I, p. 81, n. 47.

وكان على ما يذكر ابن بسام ممتنعاً من خدمة السلطان قاعداً بنفسه عن مرتبة نظرائه حتى فطن له ذو الوزارتين ابن زيدون ، فنبه عليه المعتضد فى آخر دولته ، فتصرف فيها قليلا حتى أفضى الأمر إلى المعتمد بن عباد ، فرفع من مكانته وولاه وزارته ، وكثيراً ما عول عليه فى السفارات التى كان يبعث بها إلى جيرانه وحلفائه من ملوك الطوائف ، ولما استولى النصارى على طليطلة واشتد نكيرهم على ملوك الأندلس كان ابن القصيرة هو الذى قام بعبء السفارات التى رددها المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين ، وهكذا ارتفعت منزلة ابن القصيرة لدى المعتمد حتى « استولى على الدولة استيلاء قصر عنه أشكاله » على حد قول ابن بسام ، كما كان لابن القصيرة دور له خطره فى الأحداث التى أحاطت بمعركة الزلاقة وفى أثنائها فى سنة ٤٧٩ (١٠٨٦)[١] .

ولما قام يوسف بن تاشفين بخلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف أصابت ابن القصيرة نكبة أقصته عن رتبته وأخملته مدة ثلاث سنوات حتى تذكره يوسف بن تاشفين بسبب كتاب ورد إليه من مصر فأراد الجواب عليه فاستدعاه لساعته ، وقربه من ذلك الوقت[٢] ، ويقول ابن الخطيب إن تقديم ابن تاشفين لابن القصيرة للكتابة عنه كان بعد وفاة كاتبه عبد الرحمن بن أسباط فجأة فى سبتة سنة ٤٨٧ (١٠٩٤)[٣] ، ومنذ هذا التاريخ بقى ابن القصيرة يتولى منصب الكتابة ليوسف بن تاشفين حتى وفاة الأمير فى سنة ٥٠٠ (١١٠٧) ، ثم لابنه على بن يوسف طوال السنوات الأولى من حكمه . وكانت وفاة ابن القصيرة بمراكش فى سنة ٥٠٨ (١١١٤ — ١١١٥) عن سن عالية وبعد أن أصابه خرف عطله قبيل وفاته .

---

(١) ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ٩١ ؛ السلاوى : الاستقصا ٢/٣٧ ، ٤٢ ؛ الحلل الموشية ص ٤٧ — ٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ٨/١٤٢

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ٢ ص ١٥٢

(٣) الإحاطة ص ٢٥٦ فى ترجمة عبد الرحمن بن أسباط ، وابن الخطيب يعتمد فى هذا الموضع على أبى بكر الصيرفى مؤرخ الدولة المرابطية .

وكان لابن القصيرة مكان عظيم فى الشعر والنثر بدولة المرابطين ، أخذ عن الأعلم الشنتمرى وابن شريح الإشبيلى ، ونقل ابن بسام وابن خاقان جملة كبيرة من آثاره الأدبية ، ولعل من أهم الرسائل التى احتفظت لنا بها المراجع من نتاج قلمه رسالته عن المعتمد بن عباد حول هزيمة أذفونش (ألفونسو السادس) فى موقعة الزلاقة ، وهذه الرسالة كانت من بين ما نقله له ابن بسام فى ذخيرته ، كذلك أورد الفتح بن خاقان له عدة رسائل إخوانية وسلطانية لها فائدتها التاريخية العظيمة إلى جانب قيمتها الأدبية .

ولدينا فى هذه المجموعة التى ننشرها هنا خمس رسائل بقلم كاتب مرابطى آخر هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى[(١)] ، وكان من أسرة بنى الجد من أعيان لبلة وإشبيلية ، وقد برز من هذه العائلة كتاب ووزراء مشهورون ، وقد بدأ ابن الجد حياته مشتغلا بالحديث والفقه والأدب والأنساب حتى تبحر فيها ، ثم قلده يزيد الراضى بن المعتمد بن عباد وزارته ، وظل مقربا فى دولة العباديين حتى خلعهم يوسف بن تاشفين ، فبقى مدة معتزلا لمناصب الحكم ، وقدمه أهل بلده لبلة فولوه خطة الشورى بعد امتناع منه وكراهية ، ثم استدعاه على بن يوسف بن تاشفين لتولى الكتابة فى ديوان رسائله ، فأجاب إلى ذلك ، ويبدو أنه بقى فى هذا المنصب حتى وفاته فى سنة ٥١٥ (١١٢١) .

وقد نقل ابن خاقان من رسائل ابن الجد عن على بن يوسف جملة تلقى كثيرا من الضوء على تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين نذكر منها رسالته فى تولية أبى زكريا يحيى بن أبى بكر المعروف بابن الصحراوية على سبتة وفاس ،

---

(١) فى ترجمة ابن الجد انظر : ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ١١٤٩ ؛ ابن خاقان : القلائد ص ١٠٩ — ١١٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٤١ — ٣٤٢ ؛ عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٧٣ ؛ ابن دحية : المطرب ص ١٩٠ — ١٩٢ ؛ ابن بسام : الذخيرة (مخطوطة بغداد) ق ٢ ص ١٨٥ — ٢١٣

ورسالته إلى القائد أبي محمد عبد الله بن فاطمة عامله على إشبيلية ، وأخرى عنه إلى أهل غرناطة ينعى فيها عليهم اختلافهم وتنازعهم ومطالباتهم لعامله على المدينة ويأمرهم بالانقياد له والطاعة[١] ، وهاتان الرسالتان الاخيرتان هما اللتان نجدهما فى مجموعة الرسائل التى ننشرها هنا مع اختلافات سنشير إليها فى موضعها .

ومن كتاب هذه الرسائل أيضاً الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْنُه[٢] ، وهو عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسى ، وكان من بيت نباهة وشهرة فى الأدب على الرغم من انحدار أسرته — على ما يبدو من لفظ « القبطرنه » — من أصل مسيحى إسبانى قديم[٣] . وقد كان له أخوان أبو محمد طلحة وأبو الحسن محمد كانا كذلك من جلة الوزراء والكتاب فى بلاط المتوكل بن الأفطس ببطليوس ، إلا أن أبا بكر كان على ما يذكر ابن بسام « علم بردهم وواسطة عقدهم » ، ولما خلع المرابطون بنى الأفطس كتب ابن القبطرنه لهم حتى توفى بعد سنة ٥٢٠ (١١٢٦) .

ومنهم أبو نصر الفتح بن خاقان[٤] ، وهو الكاتب المشهور صاحب

---

(١) القلائد ص ١١٣ — ١١٤

(٢) انظر فى ترجمته : ابن الأبار : التكملة ، ترجمة ١٧٤٣ ؛ ابن خاقان : القلائد ص ١٤٨ — ١٥٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٦٧ — ٣٦٨ ، ٢/٨٨ ، ٢٤٩ — ٢٥٠ ؛ ابن دحية : المطرب ص ١٨٦ — ١٨٧ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ٢ ص ٤٦٨ — ٤٨٠ ؛ المقرى : نفح الطيب ٤/٢٥٠ ، ٦/٤٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة (ط. الاستاذ محمد عبد الله عنان) ١/٥٢٨ — ٥٣١

(٣) قبطرنه كلمة من أصل لاتينى دارج مركبة من كلمتى caput أى رأس (وفى بعض اللهجات الاسبانية القديمة cap) ، وطرنه Torno أى دائرة أو مستديرة ؛ فمعنى الكلمة إذن « ذو الرأس الدائرة » . انظر فى اشتقاق هذه الكلمة : R. Dozy: *Supplement...*, II, p. 302; Simonet: *Glosario...*, p. 97.

(٤) فى ترجمته انظر ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣/١٩٤ ؛ ابن الابار : معجم أبى على الصدفى ، ترجمة ٢٧٥ ؛ ياقوت : معجم الادباء ١٦/١٨٦ — ١٩٢ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٤/١٠٧ ؛ وكذلك : Dozy: *Historia Abbadidarum*, I, pp. 2—3; Pons Boigues: *Ensayo...*, pp. 201—204; Brockelmann: *Geschichte...*, *Suppl.*, I, p. 579. وتاريخ الفكر الاندلسى لجونثالث بالنثيا (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٢٩٦ — ٢٩٩

كتابى « مطمح الأنفس » و « قلائد العقيان » ، ويقول ابن الخطيب عنه إنه لم يدع ملكا من ملوك الطوائف إلا استرفده ، فلما جاءت دولة المرابطين اتصل ببعض أمرائهم ، وكان من بين هؤلاء أبو إسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين أخ الأمير على بن يوسف وباسمه طرز الفتح كتاب « القلائد » وكانت وفاته بفندق فى مدينة مراكش وجد فيه قتيلا سنة ٥٢٩ (١١٣٤) .

وآخر هؤلاء الكتاب وفاة هو أبو عبد الله ابن أبى الخصال واسمه محمد ابن مسعود الغافقى الشقورى[١] ، وكان هو وأخوه أبو مروان عبد الملك من أعظم كتاب الدولة المرابطية ، ويقول ابن خاقان إنه كان خامل النشأة إلا أنه تميز بعد ذلك منذ اتصاله بأبى يحيى محمد بن الحاج أحد رجالات الدولة ، وما زال شأنه يرتفع حتى أصبح أنبه كتاب على بن يوسف وأعظمهم مكانة لديه ، حتى وقع منه ومن أخيه أبى مروان ما أدى إلى غضب على بن يوسف عليهما وإقصائه لهما ، إذ أن أمير المسلمين أمرهما — على ما يذكر عبد الواحد المراكشى — أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا حتى أوقع بهم ابن رذمير هزيمة قبيحة ، فكتب أبو عبد الله أو أخوه أبو مروان فى ذلك رسالة أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول مما تسبب فى موجدة أمير المسلمين[٢] ، وحينما رأى أبو عبد الله ذلك استعفى على بن يوسف فأعفاه

---

(١) انظر فى ترجمته : ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ١١٧٨ ؛ ابن خاقان : القلائد ص ١٧٥ — ١٨١ ؛ عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ — ١٧٦ ؛ ابن دحية : المطرب ص ١٨٧ — ١٨٩ ؛ ابن القاضى : جذوة الاقتباس (ط. فاس الحجرية) ص ١٤٨ — ١٤٩ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ٣ (مخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد) ورقة ١٣٤ — ١٣٨ ؛ الضبى : بغية ، ترجمة ٢٨٢ ؛ ابن خير : الفهرسة ص ٢٢١ وما بعدها ، وكذلك : Brockelmann: *op. cit.*, I, p. 454—455; *Suppl.* I, p. 629. Pons Boigues: *op. cit.*, p. 205—206.

(٢) نشر الدكتور حسين مؤنس نص هذه الرسالة فى الحلقة الثالثة من مجموعة الرسائل المرابطية التى نشرها فى صحيفة المعهد (المجلد الثالث سنة ١٩٥٥) ص ١١٦ — ١١٨ ؛ على أن الدكتور مؤنس بين أن الرسالة التى نسبها عبد الواحد المراكشى إلى أبى مروان بن أبى الخصال والتى كانت السبب فى اعتزاله منصب الكتابة إنما هى لأخيه أبى عبد الله نفسه .

ورجع إلى داره بعد وفاة أخيه أبى مروان بمراكش سنة ٥٣٩ (١١٤٥) ، وبقى ملتزماً داره بقرطبة حتى مات فى السنة التالية سنة ٥٤٠ (١١٤٦) .

وكان ابن أبى الخصال من أبرز أعلام النثر الأندلسى ، وقد نص من ترجموا له على مدى المكانة التى بلغها فى هذا الميدان ، فعبد الواحد المراكشى يقول إنه كان « له ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه »[١] ، وقد بقى من إنتاجه الأدبى قدر لا بأس به لا يزال أكثره مخطوطا[٢] .

الرسائل

وأول ما نلاحظه على هذه المجموعة من الرسائل المرابطية هو أنها كلها تقريبا صادرة عن ديوان الإنشاء الرسمى فى عهد السلطان المرابطى على بن يوسف ابن تاشفين الذى حكم المغرب والأندلس بين سنتى ٥٠٠ و ٥٣٧ (١١٠٦— ١١٤٣) ، ولهذا فإن لها قيمة عظيمة من الناحيتين الأدبية والتاريخية ، هذا فضلا عما تطلعنا عليه من بيان المراسم التى كانت تجرى عليها كتابة الإنشاء السلطانى فى هذا العصر ، مما يمكننا معه تتبع تطور هذه الكتابة فى المغرب والأندلس والمقارنة بين تلك المراسم وما كان يجرى عليه العمل فى المشرق . وفيما نشر من قبل من الرسائل المرابطية والموحدية وما احتفظ لنا به القلقشندى فى « صبح الأعشى » من وصف مكاتبات ملوك المغرب فى تلك الفترة[٣] ،

(١) المعجب ص ١٧٥
(٢) بروكلمان : تاريخ الآداب العربية ١/٤٥٤
(٣) صبح الأعشى ٦/٤٤٣ وما بعدها ، ٨/٧٨ — ٧٩

وما لم يزل بعد مخطوطاً من تلك الرسائل — مادة طيبة تمكن من القيام بدراسة شاملة لهذا الموضوع[1] .

ولسنا نريد أن نلقى فى هذا المقام حكما عاما على الكتابة فى عهد المرابطين على أساس هذه الرسائل التى نقدمها هنا ، إذ أنها لا تمثل إلا جانبا من الكتابة السلطانية ، فمعظمها كما ذكرنا صادر عن على بن يوسف بن تاشفين إلى بعض عماله أو قضاته أو أمثالهم من كبار رجال الدولة .

وتبدأ هذه الرسائل دائما بقوله « كتابنا . . . » ثم دعاء قصير بصيغة المخاطب إلى الشخص الذى توجه إليه الرسالة ، يلى ذلك ذكر البلد الذى أصدرت منه وتاريخ تحريرها ، هذا وقد احتفظ لنا جامع الرسائل فى بعضها بذكر التاريخ والمكان وأهمل ذكرهما فى بعضها الآخر ، ويلى ذلك موضوع الرسالة منتهياً بتحية قصيرة .

أما أسلوب الرسالة فهو فى الغالب موجز مركز ليس فيه الإسهاب الذى نراه فى رسائل الموحدين ، وهو مسجوع قصير الفقرات إلا أنه يأخذ من المحسنات اللفظية بقدر فهو بعيد عن التعقيد والتكلف الشديد الذى نلاحظه فى الرسائل التى كانت تكتب عن سلاطين دول المشرق فى ذلك الوقت أو التى كتبت عن السلاطين المغاربة فى العصور التالية ، ونستثنى من ذلك بعض الرسائل التى كتبها الفتح بن خاقان وابن القبطرنه فهما أديبان يغلب عليهما التكلف والتعقيد وتقليد النثر المشرقى والبعد عن الأصالة .

ولعل خير هؤلاء الكتاب هو ابن القصيرة الذى لم يبعد المراكشى عن الصواب إذ وصفه فقال إنه « كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل

---

(١) انظر كذلك ما كتبه ليفى بروفنسال عن مراسم الكتابة فى عصر الموحدين فى مقدمة ترجمته للرسائل الموحدية السبع والثلاثين : E. Lévi-Provençal: *Un recueil...*, p. 10—19.

الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى أحدثها متأخرو الكتاب اللهم إلا ما جاء فى رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء »[١] .

وفى ذلك مظهر لبساطة الدولة المرابطية بالنسبة للموحدية وما تلاها من الدول المغربية والأندلسية التى نجد فيها كثيراً من التكلف فى الأسلوب وإسهابا فى ذكر ألقاب السلطان الموجه للرسالة أو المتلقى لها .

هذا ونلاحظ كذلك أن جميع هؤلاء الكتاب أندلسيون ، وأن أكثرهم كانوا من بين الذين برزوا فى ظل ملوك الطوائف ممّن قدر للأدب فى عهدهم نهضة كبيرة ، فابن القصيرة وابن الجد كانا ممن خدموا بنى عباد فى إشبيلية ، وابن القبطرنه اشتهر فى بلاط بنى الأفطس ملوك بطليوس ، والفتح بن خاقان كان يتردد بين جميع ملوك الطوائف ، وليس بين هؤلاء كاتب مرابطى النشأة إلا ابن أبى الخصال وإن كان قد تتلمذ على أعلام الجيل السابق الذى اكتمل فى ظل ملوك الطوائف .

وقد كانت استعانة المرابطين بهؤلاء الكتاب من أجلى مظاهر توثق الصلات بين الأندلس والمغرب والتقريب بين ثقافتى البلدين ، ونحن نعلم أن هذه الصلات لم تنقطع قط منذ أصبحت إسبانيا جزءاً من العالم الإسلامى ، إلا أن جواز المرابطين إلى الأندلس وحكمهم إياها كان معناه الوحدة الكاملة بين هذه البلاد والمغرب الإسلامى لأول مرة ، وهى وحدة استفاد منها الجانبان ، فقد ضمنت للاسلام بعض الاستقرار والقوة فى الأندلس بعد أن كاد تخاذل ملوك الطوائف وتفرقهم يقضى على الدولة الإسلامية فى تلك البلاد ، وأما المغرب فقد عرف كيف ينتفع من الحضارة الأندلسية ومقوماتها ويصطنعها فى سرعة تدل على تحامل من زعم أن

---

(١) المعجب ص ١٦٤

المرابطين كانوا شعبا خشنا بدويا محاربا لم يأخذ بنصيب من رقة الحضارة وتهذيبها[(١)] .

وهذا التحامل على المرابطين ليس أمراً جديداً بين المؤرخين الأوربيين المحدثين الذين رسموا لعهد المرابطين صورة قاتمة مصورين رجالهم جفاة غلاظاً لا يكادون يتذوقون الأدب العربى ولا يفهمونه ، ولا يقدرون العلماء والأدباء حق قدرهم كما نجد فيما كتبه دوزى ومن تابعه عن الدولة المرابطية[(٢)] ، فهو أمر نجد بوادره لدى هؤلاء الأدباء الأندلسيين الذين كان شعورهم بقوميتهم الأندلسية يدفعهم إلى النظر إلى هؤلاء اللمتونيين نظرتهم إلى أجنبى فاتح متناسين العاطفة الدينية التى كانت توجب عليهم أن يعترفوا للمرابطين بفضلهم الأكبر : وهو إنقاذهم للاسلام الأندلسى بعد أن ضاق الخناق عليه منذ أوائل القرن الخامس الهجرى ، على أنه لم يكن من الغريب أن يتحامل على المرابطين أمثال هؤلاء الأدباء ممن كانوا يجدون فى حياة الترف المنحل التى كان ملوك الطوائف غارقين فيها مرتعاً خصباً ومعينا يروون منه أطماعهم وشهواتهم ، وقد كان من مظاهر ذلك ما كتبه الشقندى فى رسالته عن يوسف بن تاشفين الذى « لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه قدرا »[(٣)] ، وهو كلام إن دلنا على شىء فإنما يدل على غرور أمثال

---

(١) انظر الملاحظات التى سجلها فى ذلك الأستاذ ليفى بروفنسال فى مقاله « آراء حول الدولة المرابطية فى أوائل القرن الثانى عشر » :
Lévi-Provençal: *Reflexions sur l'Empire Almoravide au début du XII^e siècle* (Cinquantenaire de la Faculté des Lettres d'Alger, 1881—1931), Alger, 1932; p. 314 sqq.

(٢) أورد الأستاذ غرسية غومز موجزاً وافيا لآراء المؤرخين الأوربيين المحدثين فى الثقافة الأندلسية فى ظل المرابطين فى بحثه عن « اضمحلال الشعر فى اشبيلية فى عصر المرابطين » :
E. García Gómez: *Un eclipse de la poesía en Sevilla. La época almorávide,* pp. 22—26.

(٣) المقرى : نفح الطيب ٤/١٨١ ، هذا ونلاحظ أن هذه الأحكام كانت كثيراً ما تكتب بدافع الملق ، فالشقندى كتب رسالته متزلفا إلى الموحدين ، وكأن تزلفه لم يكن ليتم إلا بالتهجم على المرابطين والافتراء عليهم .

هؤلاء الأدباء كأن الحكم على أقدار الممالك والدول منوط بهم وحدهم يرفعون ويخفضون ، ويعزون ويذلون[١] .

والواقع أن عناية المرابطين بالثقافة والأدب نثره وشعره لم تكن دون عناية ملوك الطوائف بهما ، وقد أقبل المرابطون أمراؤهم وعمالهم على الثقافة الأندلسية ينهلون من مواردها فى تواضع المستفيدين لا فى كبرياء الملوك الحاكمين ، وكان من أجلى مظاهر ذلك ما أشرنا إليه من تسامحهم فى الاستعانة بمعظم أولئك الكتاب والشعراء الذين خدموا ملوك الطوائف حتى الذين استمروا على ولائهم وإخلاصهم لدولهم الزائلة . وهذه الرسائل التى ننشرها هنا تدل على مدى استعانة المرابطين بأولئك الكتاب الأندلسيين على الرغم من أنهم لم يكونوا كلهم أهلا لثقتهم .

ولهذه الرسائل كما سبق أن بينا قيمة تاريخية كبيرة ، وسوف نتحدث لذلك عنها واحدة واحدة فى الصفحات التالية .

الرسالة الأولى

كتب هذه الرسالة أبو عبد الله بن أبى الخصال عن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، ولم يعين جامع الرسائل مكان إصدارها ولا تاريخه .

غير أن ما ورد فى هذه الرسالة يمكن أن يدلنا بوجه التقريب على تاريخ كتابتها وعلى الظروف التى كتبت فيها ، فموضوع الرسالة هو وفود الفقيه المشاور ابن رشد إلى المغرب ولقاؤه لأمير المسلمين وما وصفه من سوء أحوال الأندلس ، ويبدو من الرسالة أن هذه الأحوال بلغت حداً عظيما من الاضطراب

---

(١) للمؤرخ المغربى السلاوى صفحة رائعة سجل فيها ما أخذه البعض على حكم المرابطين ورد فيها على تلك التهم فى عدل وأمانة جديرين بالإعجاب . انظر الاستقصا ٢/٥١ — ٥٢

إذ أن أمير المسلمين بعد فيها بأن يتخذ للأمر أهبته : « . . . ولن نألو جهداً مبذولا ، وجهدا حفيلا ، وعزما لا نابيا ولا كليلا ، فيما ندرأ وندفع ، ونذود عن حوزة الملة ونمنع ، ونذأب لذلك [الدأب] الحثيث ، ونتبع القديم فيه بالحديث » .

فما هى هذه الأمور التى أزعجت أمير المسلمين كل ذلك الإزعاج ؟ من الواضح أن الأمر يتعلق بخطر كان يتهدد الإسلام فى بلاد الأندلس ، خطر حمل الفقيه بن رشد القرطبى إلى تجشم مشاق الرحلة إلى مراكش حتى يبسط الأمور بين يدى على بن يوسف .

وابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد جد الفيلسوف الأندلسى المشهور الذى حمل هذا الاسم أيضا ، ولد بقرطبة فى سنة ٤٥٠ (١٠٥٨) ودرس فى الأندلس على جلة علمائها ، ثم تولى قضاء الجماعة فى قرطبة سنة ٥١١ (١١١٧) وظل فى هذا المنصب حتى سنة ٥١٣ (١١١٩) أو ٥١٥ (١١٢١) حين استعفى من القضاء حتى يفرغ لكتابة مجموعته الفقهية الكبيرة « البيان والتحصيل » ، وكانت وفاة ابن رشد فى قرطبة فى الحادى عشر من ذى القعدة سنة ٥٢٠ (أول يولية سنة ١١٢٦)[١] .

أما سفارته إلى مراكش فقد أمدنا مؤرخو المغرب عنها ببيان مفصل ، وأوفى ما جاء فى ذلك هو ما ذكره صاحب « الحلل الموشية » الذى قال إن الفقيه ابن رشد جاز إلى المغرب فى سنة ٥١٩ (من ٧ فبراير ١١٢٥ إلى ٢٦ يناير ١١٢٦) فوصل إلى مراكش عاصمة المرابطين حيث استقبله أمير المسلمين بكثير من الحفاوة ، وكان الهدف من سفارته هو إطلاع على بن يوسف على

---

(١) فى ترجمة ابن رشد انظر : ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ١١٥٤ ؛ الضبى : البغية ، ٢٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٧٨ — ٢٧٩ ؛ بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ١/ ٣٨٤ ؛ والذيل ١/٦٦٢

أحوال الأندلس وما جناه عليها النصارى المعاهدون من استدعائهم الملك النصرانى «ابن ردمير» ، وهو ألفونسو الأول الملقب بالمحارب Alfonso I el Batallador ملك أرغن Aragon ، وكان الملك المسيحى قد توجه فى أواخر شعبان سنة ٥١٩ (أوائل سبتمبر ١١٢٥) على رأس حملة كبيرة إلى بلاد الأندلس فاخترقها من الشمال إلى الجنوب ، فخرج من سرقسطة ، ثم توجه إلى بلنسية فخرب بسائطها ، ثم هاجم جزيرة شقر Alcira ودانية Denia ومنها إلى مرسية ثم إلى بسطة Baza ووادى آش Guadix ، ومن هناك توجه إلى غرناطة مخربا كل القرى التى مر عليها فى طريقه وضرب الحصار على غرناطة وإن لم يستطع دخولها ، ثم واصل سيره مخترقا إقليم قرطبة وملحقا بجيش المسلمين هزيمة فادحة فى الرنيسول Anzul بقرب اليسانة Lucena ، ثم تابع مسيره إلى الساحل مقتحما إقليم رية (مالقة وأرشذونة) والبشرات Alpujarras حتى وصل إلى قرية بلش Vélez-Málaga على ساحل البحر الأبيض ، وأنشأ بها جفنا صغيرا يصيد له حوتا ، فأكل منه كأن ذلك كان رمزاً لاقتحامه بحر المسلمين . ومن هناك توجه الملك المسيحى عائدا إلى بلاده بعد أن بقى نحو سنة يجوب بلاد المسلمين دون أن يجد من أهلها مقاومة تذكر[1] .

وقد كان مما أعان ألفونسو الأول على القيام بهذه الحملة أن النصارى المعاهدين كانوا هم الذين كاتبوه وتوالت عليه رسلهم مطمعة إياه فى دخول غرناطة ، ثم إنهم كانوا يعززونه ويقوون صفوفه أينما توجه ويدلونه على عورات

(١) عن هذه الحملة انظر : الحلل الموشية ص ٧٥ — ٨٠ (وترجمة أويثى الاسبانية ص ١٠٩ — ١١٠) ؛ ابن الخطيب : الاحاطة (ط . محب الدين الخطيب) ١/٢٠ — ٢٤ ؛ الاحاطة (ط . الأستاذ محمد عبد الله عنان) ١/١١٤ — ١٢٠ ؛ وكذلك Dozy: *Recherches...*, I. pp. 348—363; Codera: *Decadencia...*, p. 13—16; Bosch Vila: *Los Almoravides*, pp. 233—236; ويوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان) ص ١٤٦ — ١٥٠

البلاد حيثما سار ، وقد أوغر ذلك صدور المسلمين عليهم بطبيعة الحال ، وفى ذلك يقول ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفى : « ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم المعاهدين ما أجلت عنه هذه القضية أخذهم الإرجاف . . . ووجه القاضى أبو الوليد ابن رشد الأجر ، وتجشم المجاز ، ولحق بالأمير على بن يوسف بن تاشفين بمراكش ، فبين له أمر الأندلس وما منيت به من معاهدها وما جنوه عليها من استدعاء الروم وما فى ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة ، وأفتى بتغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم »[١] .

فالرسالة التى بين أيدينا تشير إذن إلى سفارة ابن رشد هذه التى قام بها لإطلاع أمير المسلمين على حال الأندلس بعد تلك الغزوة الجريئة التى قادها الملك المسيحى فى قلب بلاد المسلمين والتى أفتى ابن رشد نفسه بعدها بإجلاء النصارى المعاهدين (Los Mozárabes) عن أرض الأندلس . ولعل هذه السفارة هى آخر ما اضطلع به الفقيه القرطبى ، إذ أنه توفى فى بلده قرطبة بعد عودته بقليل فى أواخر سنة ٥٢٠ (يولية ١١٢٦) . أما ما وعد أمير المسلمين فى نهاية الرسالة باتخاذه من إجراءات لمواجهة الموقف فلا شك فى أنه كان من أولها قراره بتغريب النصارى المعاهدين عملا بمشورة ابن رشد ، وقد تم ذلك فى رمضان من هذه السنة نفسها (من ٢٠ سبتمبر إلى ١٩ أكتوبر ١١٢٦) أى بعد وفاة ابن رشد بنحو شهرين . فأجلى عدد كبير من هؤلاء النصارى إلى منطقتى مكناس وسلا وغيرهما من أراضى المغرب[٢] .

---

(١) الاحاطة (ط. عنان) ١/١١٩ — ١٢٠

(٢) الحلل الموشية ص ٧٩ — ٨٠ (وترجمة أويثى الاسبانية ص ١١٥) .

الرسالة الثانية

كاتب هذه الرسالة هو ابن أبى الخصال ، وهى صادرة عن على بن يوسف من حضرة مراكش فى يوم الاثنين من منتصف شوال سنة ٥٠٧ (٢٥ مارس سنة ١١١٤) ، وهى موجهة فى صورة بيان من الأمير إلى أهل الأندلس كافة . أما موضوعها فهو إعلام الشعب الأندلسى بما استقر عليه عزم أمير المسلمين من التجهز للغزو والجهاد فى سبيل الدفاع عن الإسلام ، ونأخذ من الرسالة أن الأمير قد اتخذ أهبته واجتهد فى الاستعداد وبالغ فيه : « . . . ونحن وإن كنا بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد والأمداد ، ما يربى على الاحصاء والتعداد . . . الخ » .

وإذا قابلنا ذلك باليسير النزر مما احتفظت به المراجع التاريخية من أخبار هذه السنة من حكم المرابطين فى الأندلس فإننا نجد فى الواقع تأكيداً لما تشير إليه الرسالة من احتفال المرابطين واهتمامهم بدفع النصارى عن بلاد الأندلس . فقد كانت سنة ٥٠٧ (١١١٣—١١١٤) فى الحقيقة سنة جهاد متصل ونشاط عسكرى لم يتكلل دائماً بالنصر ، إلا أن المرابطين أبلوا فيه على أية حال أجمل البلاء ، ولم يقصروا خلاله فى الدفاع عن الاسلام قط ، ونحن نرى من ذلك أن على بن يوسف بن تاشفين ومن ورائه عماله وقواده فى الأندلس لم يكلوا عن الكفاح أبداً على الرغم من تجمع قوى النصرانية عليهم من جهة ، وكراهية بعض طبقات الشعب الأندلسى لحكمهم من جهة أخرى ، وهى كراهية ليس لها ما يبررها ولا تفسر إلا بعاطفة قومية متعصبة ضيقة التفكير قصيرة النظر .

ونحن نعرف من غزوات المرابطين الموفقة التى وجهت فى سنة ٥٠٧ المذكورة غزوة مزدلى بن سلنكان الذى أرسله على بن يوسف خاصة من مراكش إلى الأندلس عاملا على قرطبة وغرناطة ، ولم يضع مزدلى وقته إذ

أنه لم يصل إلى مقر عمله حتى توجه بقواته إلى إشبيلية مستمداً عاملها الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى ، وسارت جيوش المرابطين إلى طليطلة عاصمة مملكة قشتالة ، ففتح مزدلى كثيراً من حصون طليطلة ودوخ بسائطها وأبلغ فى نكايتها ، ويذكر ابن أبى زرع أن خبر اقتحام مزدلى لأرض طليطلة اتصل بالقائد المسيحى البرهانس Alvar Fañez ، فأقبل للقاء مزدلى ولكنه لم يسعه إلا الفرار أمامه ، ورجع القائد المرابطى إلى قرطبة ظافراً غانما ، وما زالت حملات مزدلى تتردد على طليطلة حتى استشهد غازيا فى شوال سنة ٥٠٨ (مارس ١١١٥)[١] ، وخلفه على قرطبة ابنه محمد الذى استشهد أيضاً بعد ثلاثة شهور .

كذلك من مظاهر الجهود العسكرية المتزايدة التى بذلها المرابطون فى هذه الفترة تلك الحملة التى قادها فى سنة ٥٠٨ القائدان المرابطيان محمد بن الحاج ومحمد بن عائشة إلى أرض برشلونة (إمارة قطلونية Cataluña) ، وهى منطقة لم يعد أحد من أهل الأندلس المسلمين يجرؤ على اقتحامها منذ أكثر من مائة عام حينما كانت تتوالى عليها هجمات المنصور بن عامر وابنه عبد الملك المظفر . ولا غرو فإن هذين القائدين كانا من خيرة من أنجبه الحكم المرابطى من عباقرة السياسة وفرسان الحرب . وقد بدأت غزوتهما الجريئة بداية طيبة إذ أصابا كثيراً من الغنائم ، غير أن ابن الحاج عند عودته اتخذ طريقا آخر غير الذى سلكه فى ذهابه ، وكان طريقا جبليا ضيقا ، وما كاد يتوسطه حتى أطبق عليه كمين من النصارى فقاتلهم قتال من أيقن بالموت . واستشهد فى هذه المعركة

---

(١) عن هذه الغزوة انظر : ابن عذارى : البيان المغرب (الجزء المخطوط الخاص بدولة المرابطين) ورقة ٢٤ ؛ ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢/٨٦ — ٨٧ ؛ السلاوى : الاستقصا ٢/٥٩ (وهو اختصار لما كتبه ابن أبى زرع) ؛ ابن الكردبوس : الاكتفا (حسب الترجمة الانجليزية التى قام بها باسكوال دى جاينجوس وجعلها ذيلا لترجمته لكتاب نفح الطيب للمقرى) : Pascual de Gayangos: *History of Mohammedan Dynasties in Spain,* vol. II, Appendix C, p. XLVIII.

التى يعرفها مؤرخو المسيحيين باسم كونجست دى مارتوريل Congost de Martorell ؛ أما ابن عائشة فلم يفلت إلا بصعوبة شديدة[(١)] .

وهكذا نرى أن النشاط العسكرى للمرابطين فى هذه السنة وما تلاها قد بلغ أوجه ، وأقبلت جيوشهم تسد الثغرات التى كانت تضعف من قوة الخطوط الدفاعية الاسلامية فى الأندلس فى جميع الجهات ، وفى كل ذلك تأييد لما تذكره الرسالة التى بين أيدينا من اجتهاد الحكومة المرابطية فى الاستعداد للجهاد واتخاذ الأهبة له .

هذا وفى الرسالة المذكورة ناحية أخرى جديدة بالملاحظة ، ونعنى بها اهتمام الحكومة المرابطية إلى جانب الاستعداد المادى بالاستعداد الروحى ، فأمير المسلمين يدعو أهل الأندلس إلى إخلاص الدعاء والنية والتضرع لله وسؤاله النصر والمعونة إذ « أن الدعاء إذا وافق إجابة يمضى حيث ينبو الحديد المذرب ، ويكبو العديد المتهيب » ، وهو أمر لا نستغربه من سلطان عميق التدين مثل على بن يوسف ، وهذا الجانب الدينى من حكم المرابطين هو الذى كثيراً ما حمل بعض المؤرخين المحدثين من أجله على حكومتهم ، إلا أن الذى يتأمل أحوال الأندلس فى عهد ملوك الطوائف فإنه يرى ما بلغته من تحلل دينى وخلقى كان هو العلة الأولى للتفكك السياسى الذى بقى يتهدد الاسلام بالانهيار فى هذه البلاد منذ أوائل القرن الخامس الهجرى لولا أن هرع المرابطون إلى نجدته واستنقاذه ، ولهذا كان من الطبيعى أن يلح الأمير المرابطى على هذه الناحية ويطلب إلى أهل الأندلس مزيداً من العناية بذلك « الجهاد الأكبر » — جهاد أنفسهم وإخلاص نيتهم لله دون أن يعنى ذلك تقصيرا فيما كانت الدولة المرابطية مشتغلة به من أمر الجهاد العسكرى .

---

(١) عن هذه الواقعة انظر : ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢/٨٣ — ٨٤ ؛ السلاوى : الاستقصا ٢/٥٨ ، وانظر ما كتبه عنها :

الدكتور حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى . . . ، ص ١١٢ — ١١٣

F. Codera: *Decadencia...*, pp. 20-22, 272-278; Bosch Vila: *Almorávides*, pp. 189-190.

الرسالة الثالثة

كاتب هذه الرسالة هو ابن أبى الخصال ، وهى صادرة عن على بن يوسف إلى ابنه أبى بكر من حضرة مراكش يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٢٠ (٢٤ مارس سنة ١١٢٦) .

ولهذه الرسالة قيمة عظيمة فى بيان عدة نواحى متعلقة بتاريخ المرابطين أولها ما توضحه من أسرة على بن يوسف نفسه وأبنائه ، وهذه مسألة من أكثر نواحى التاريخ المرابطى غموضا وأجدرها بالإيضاح ، إذ أن حديث المؤرخين القدماء عنهم مضطرب أشد الاضطراب ، والروايات التاريخية عن ذلك حافلة بالتناقض والتضارب ؛ ثم إن فى هذه الرسالة ما يطلعنا على بعض التفاصيل الخاصة بالنظام الإدارى والسياسى والعسكرى للمرابطين وطريقتهم فى الحكم .

والذى يفهم من هذه الرسالة أنها رد على كتاب من أبى بكر بن على بن يوسف إلى أبيه وصف فيه « الحال الجارية بحكم الأقدار النافذة الماضية » ، وهى إشارة يفهم منها وقوع حادث خطير مؤسف ، فإننا نجد فى جواب على ابن يوسف بعد هذه العبارة « وألا صارف لما أمضاه ، ولا معقب لما شاءه وقدره لا إله سواه » ، ثم إن الرسالة تتحدث بعد ذلك عما قد يكون لهذا الحادث من تأثير على المسلمين فى الأندلس من تثبيط لعزائمهم وإضعاف لروحهم المعنوية ، فتدعو أبا بكر بن على إلى أن يعمل على ضبط الأمور ومواصلة الجهاد ، ثم تتبع ذلك بما قرره أمير المسلمين من تقديم ابنه أبى بكر على جميع الجيوش فى الأندلس عموما يشمل من كان هناك منها ومن وصل من المغرب إليها ، وأنه قد كتب إلى جميع عمال الدولة (بالأندلس) بالسمع منه والطاعة له ، ثم تضيف الرسالة إلى ذلك إشارة لها مغزاها : « وليست الحال الآن كالحال قبل ، فإنها الآن يتنوط بك الدق منها والجل ، والكثر والقل » ،

ومعنى هذا أن أبا بكر كان فى هذا الوقت يتولى بعض أعمال الأندلس ، إلا أن رسالة على بن يوسف هذه قد قدمته إلى مكان أرفع وأسمى : إلى مكان القيادة العامة لجميع جيوش المرابطين فى الأندلس ، وتنتهى الرسالة بوصية أبيه إليه بمواصلة الجهاد وبالتشاور مع سائر القواد بحيث لا يستأثر ولا يستبد ولا يتخذ قراراً إلا بعد عرضه على أهل الرأى .

وأول ما يستحق التعليق هنا هو ما يتصل بأبى بكر بن على بن يوسف الذى وجهت إليه الرسالة : من هو ؟ وما مكانه من سائر أبناء أمير المسلمين على بن يوسف .

الواقع أن الأخبار الخاصة بأبناء السلطان المرابطى محوطة بالغموض مما يحملنا هنا على الحديث عنهم بشىء من التفصيل[1] . وقد ذكر ابن أبى زرع من هؤلاء الأبناء ثلاثة : تاشفين المولى بعده ، وأبا بكر ، وسير (فى الأصل سيرى)[2] ؛ أما صاحب « الحلل الموشية » فهو يذكر منهم — فى آخرين — تاشفين المولى بعده ، وسير ، وأبا بكر الذى يقول إنه كان يلقب ببكور ، وإنه كان شجاعا مقداما وإن أباه سجنه فى الجزيرة الخضراء حتى توفى فى سجنه ، ويضيف إلى ذلك أن مولده كان لستة عشر عاما من مولد أبيه (أى

---

(١) كان كوديرا قد اختص أبناء على بن يوسف بالبحث فى دراسته التى كتبها عن أسرة بنى تاشفين (*La famifia real de las Beni-Texufin,* en *Estudios críticos de historia árabe-española,* vol. IX, pp. 75-165).

غير أن المخطوطـــات الجديدة التى اكتشفت فى السنوات الأخيرة قد قللت من قيمة هذه الدراسة وكشفت النقاب عن كثير مما أغمض على هذا الباحث ، ولعل خير ما كتب أخيراً عن هذا الموضوع هو البحث الذى وضعه الأستاذ أويثى بعنوان «على بن يوسف وأعماله فى الأندلس» : A. Huici Miranda: *'Alī b. Yūsuf y sus empresas en al-Andalus,* en Tamuda, Tetuán, 1959, pp. 77-122.

إذ أنه أفرد بعض صفحات هذا البحث للكلام عن أبناء على بن يوسف (الملحق رقم ١ ص ١٠٤ — ١٠٦) .

(٢) روض القرطاس ٢/٧٨ ، هذا وإن كان المعروف أن أبناء على بن يوسف أكثر من هذا العدد بكثير ، وقد تحدث ابن أبى زرع فى مواضع مختلفة من كتابه عن بعض من لم يذكر أسماءهم هنا .

أنه ولد فى سنة ١٠٩٩/٤٩٣—١١٠٠ إذا عرفنا أن على بن يوسف ولد فى سنة ١٠٨٤/٤٧٧—١٠٨٥)[١] ، وقد أدى هذا الاضطراب إلى اختلاف المؤرخين المحدثين حول أبى بكر هذا ، فاعتبره معظمهم هو نفسه المذكور باسم « سير » وأن « أبا بكر » ليست إلا كنية له[٢] .

على أننا نستطيع أن نؤكد أن « أبا بكر » و « سير » أخوان مختلفان متميزان كل التميز[٣] .

أما سير فإنه هو الذى أعلنه أبوه على بن يوسف ولياً لعهده فانعقدت له البيعة فى يوم الجمعة ١٤ جمادى الأولى سنة ٥٢٢ (١٥ يونيه ١١٢٨) كما ينص على ذلك ابن عذارى[٤] والوراق فى كتابه « المقباس »[٥] ، ويضيف ابن الخطيب إلى ذلك أن على بن يوسف ولى ابنه الثالث تاشفين فى نفس الوقت على الأندلس كلها فكبر ذلك على سير وفاوض أباه فى عزله معبراً عن حسده لأخيه لمـا حمله من ثناء الناس وذكرهم حتى إن اسم تاشفين غطى على اسمه وأمال إليه جميع أهل المملكة ، فلم يسع أباه إلا أن عزل تاشفين عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حضرته ، فرحل عن الأندلس فى أواسط سنة ٥٣١

---

(١) هذا هو مجمل نص « الحلل الموشية » حسب طبعة الأستاذ ا. علوش الذى لم يعتمد فى نشره لهذا النص على مخطوطاته الأخرى التى كانت محفوظة ببعض المكتبات الأوربية ، وهى تختلف عن نص علوش اختلافاً بيناً ، فقد نقل دوزى هذا النص عن مخطوطتى ليدن ومجموعة جاينجوس بهذه الصورة : «أبو بكر سير درج فى حياته ويدعى ينكور ، وكان ذا حدة وشجاعة . . . الخ » — انظر : Dozy: *Loci de Abbadidis,* I, pp. 18-19.

(٢) F. Codera: *La familia real de los Beni-Texufin,* en *Estudios críticos de historia árabe-española,* vol. IX, pp. 117-120.

(٣) كنت قد رجحت ذلك مما جمعته من مختلف المراجع المعروفة التى استطعت الانتفاع منها ، حتى وقعت إلى مخطوطة البيان المغرب (المرابطى) التى قام بنسخها الأستاذ أويثى تمهيداً لنشرها ، والتى تفضل باطلاعى عليها المستشرق الإسبانى الجليل ، وحينئذ أصبحت متأكداً من صواب هذا الرأى .

(٤) البيان المغرب ، ورقة ٣٤

(٥) حسبما نقل عنه ابن الخطيب فى الإحاطة (ط. عنان) ١/٤٥٤

(أوائل سنة ١١٣٧) ، فوصل إلى مراكش وصار فى جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابه[١] .

وقد بقى سير ولياً للعهد منذ سنة ٥٢٢ حتى وفاته سنة ٥٣٣ (١١٣٨/١١٣٩)[٢] ، ويذكر ابن الخطيب أنه توفى « على الصورة القبيحة » التى وعد بتفصيلها عند ترجمته له ، وقد حاول دوزى أن يفسر هذه الصورة القبيحة على أنها كانت وفاة سير فى سجن الجزيرة الخضراء ، إذ افترض دوزى أن نص « الحلل الموشية » يدل على ذلك[٣] ، على أن كوديرا استبعد ذلك إذ لو كان صحيحا لكان المعقول هو أن يعزله أبوه عن ولاية العهد أولا ، والنقود التى عثر عليها منصوصا فيها على ولاية سير لعهده أبيه مستمرة إلى سنة ٥٣٣ التى توفى فيها . على أن نص « البيان المغرب » المرابطى قد قطع الجدل فى ذلك ، إذ أنه يصرح لنا فى حوادث سنة ٥٣٣ بأن سيرا « كان يركن إلى الراحة ويصطحب أهل الفكاهة ، فاقتحم ليلا على أخيه تاشفين فى داره ، فضربه وقضى عليه فمات[٤] » ، ويبدو أن سيراً حاول اغتيال أخيه تاشفين ، فتنبه هذا إليه ودارت الدائرة على المتعدى .

وأما أبو بكر فإنه أقل هؤلاء الثلاثة من أبناء على بن يوسف نصيباً من عناية المؤرخين حتى إن بعض المؤرخين المحدثين خلطوا بينه وبين أخيه

---

(١) نفس الموضع السابق ، والبيان المغرب ، ورقة ٣٥

(٢) يتفق هذا التاريخ تماماً مع ما ذكره كوديرا من أن من بين النقود المرابطية التى عثر عليها مجموعة ضربت فى مراكش والمرية وإشبيلية منصوصاً فيها على « سير ولى العهد » ، أما تاريخ ضرب هذه النقود فإنه ينحصر بين سنتى ٥٢٢ و ٥٣٣ ؛ انظر Codera: *La familia real...*, pp. 119-120.

(٣) Dozy: *Loci de Abbadidis*, I, pp. 18-19 ؛ وهذا ما يمكن أن يفهم من نص « الحلل » حسب مخطوطتيه الأوربيتين اللتين رجع إليهما دوزى ، أما النص كما نشره علوش فإنه لا يستنتج منه شىء من ذلك .

(٤) البيان المغرب ، ورقة ٤٦ ؛ أما ابن القطان فإنه يسوق خبر مصرع سير بصورة أخرى ، إذ يقول : « وفى هذه السنة [٥٣٣ هـ.] هلك سير بن على بن يوسف فى آخر صفر ، وكان على بن يوسف قد فتن به وقدمه ولى عهده ، ولم يكن أهلا لشىء ، فعكف على البطالة ، ودخل متسوراً على أخيه عمر يريد زوجته ، فجرح جراحة عجلت منيته » (نظم الجمان ، ورقة ٨٢ ب) .

سير ، وشككوا فى وجود ابن لعلى بن يوسف يحمل هذا الاسم[١] .

ومجمل ما استطعنا جمعه من أخبار أبى بكر بن على فى المراجع التاريخية هو أنه كان أكبر أبناء على بن يوسف إذا أنه ولد فى سنة ٤٩٣ (١٠٩٩—١١٠٠) حينما كان أبوه يناهز السادسة عشرة من عمره ، وكان يلقب ببكور أو بكو[٢] ، ويبدو أنه نشأ فى الأندلس كما جرت عادة على بن يوسف فى تربية أبنائه ، فدرج فى إشبيلية وقام على رعايته وتأديبه الطبيب الأندلسى المشهور أبو مروان ابن زهر ، على أنه — فيما يظهر — لم يكن مكبا على الدرس منصرفا إلى التحصيل مما دعا والده فى إحدى المناسبات إلى تقريعه ونهره ، وكل ذلك نأخـذه من وثيقة مهمة كانت من بين الرسائل المرابطية التى اضطلع بنشرها الدكتور حسين مؤنس ، وهى رسالة قصيرة صادرة من على بن يوسف إلى ابنه أبى بكر المذكور يقول فيها : «كتابنا ألهمك الله رشد نفسك . . . من حاضرة مراكش . . . بعد وصول الوزير الجليل أبى مروان ابن الوزير . . . أبى العلاء ابن زهر محل أبينا . . . يشكو ما يكابده من

---

(١) نلاحظ بهذه المناسبة أن من أسباب اضطراب أخبار المؤرخين عن أمراء المرابطين ورجال دولتهم بوجه عام هو أن كثيراً منهم كانوا يذكرون بكناهم أو بأسماء أمهاتهم أو أجدادهم دون أسمائهم ، ولنشر من أمثلة ذلك إلى : أبى بكر بن عمر (ابن عم يوسف بن تاشفين وأمير المرابطين قبله) ؛ وأبى بكر بن يوسف بن تاشفين (الذى توفى بسبتة بينما كان أبوه فى معترك وقعة الزلاقة) ؛ والقائد أبى محمد ابن فاطمة ؛ وابن عائشة ؛ وابن الصحراوية . . . الخ ؛ ويبدو أن هذه التسميات كانت جرياً على عادة قديمة ذائعة فى أوساط القبائل البربرية ، ونلاحظ بوجه خاص أن اسم «أبى بكر» كان من أكثر الأسمـــاء ذيوعاً لدى صنهاجة ولمتونة ومسوفة وغيرها من قبائل المرابطين ، فقد تسمى به كثير من أمرائهم ورجالاتهم لا على أنه كنية وإنما اسم علم لا يعرف الشخص إلا به .

(٢) فى نص الحلل الموشية (ط. علوش) ص ٦٨ : « . . . ويدعى ببكور » ، وقد قرأ دوزى هذه الكلمة عند نقله لهذا النص معتمداً على المخطوطتين الأوربيتين «ينكور» وفسرها بأن معناها «الأسد» تشبيهاً له به فى الاقدام والشجاعة (*Loci de Abbadidis*, I, p. 18) ؛ أما أويثى فقد قرأها «بكور» وفسرها بأن أبا بكر كان أول أبناء على بن يوسف أو «باكورتهم» (ص ٩٩ — ١٠٠ من الترجمة الاسبانية للحلل) ، ومن الجلى أن تفسير دوزى فيه كثير من الابعاد والتعسف ، وأما تأويل أويثى فهو أقرب إلى المعقول .

تشغيبك ، ويقاسيه من تضريبك ، فأمسك عليك رمقك ، وخذ من الأمور ما يسر ، وإلا أنفذناك إلى ميورقة . . . »[١] .

ولعل أول منصب رسمى أسند إلى أبى بكر بن على بن يوسف كان توليه حكم إشبيلية خلفاً لعمه تميم بن يوسف بن تاشفين الذى عزل عن حكم هذه المدينة فى ذى الحجة سنة ٥١٧ (يناير—فبراير ١١٢٤) ، على أنه لم يضطلع بحكم إشبيلية إلا فى شهر المحرم سنة ٥١٨ (فبراير—مارس ١١٤٢)[٢] .

وقد أمدنا « البيان المغرب » بتفاصيل قيمة عن بعض ما قام به أبو بكر فى أثناء حكومته لاشبيلية ، من ذلك دوره فى تلك الحملة المشهورة التى قادها ابن رذمير (ألفونسو المحارب) إلى بلاد الأندلس فى سنة ٥١٩ (١١٢٥— ١١٢٦) ، إذ أن أبا بكر تحرك على رأس جيوش إشبيلية فى أثر ألفونسو حينما وصل هذا إلى قبرة Cabra ، ويبدو أنه اشترك فى الموقعة التى دارت بين المسلمين و بين ألفونسو عند حصن أرنيسول ، وهى التى انتهت بهزيمة المسلمين ، ولما حل ابن رذمير بوادى آش سار إليه أبو بكر وأرغمه على فك الحصار عن هذه المدينة[٣] .

ونستنتج من الرسالة التى بين أيدينا أن أبا بكر بن على قد كتب إلى أبيه فى هذه المناسبة شارحا الظروف التى وقعت فيها حملة ألفونسو المحارب على الأندلس ومبينا ما أصاب المسلمين من جراء هذه الحملة ، وقد رأينا كيف حمل سوء أحوال شبه الجزيرة قاضى الجماعة بقرطبة أبا الوليد بن رشد على الجواز

(١) الدكتور حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة . . . ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ، ص ٦٨ — ٧٠

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ورقة ٣٠ ؛ وانظر كذلك كتاب مفاخر البربر ص ٨١ حيث يورد قائمة بأسماء ولاة اشبيلية وفيها يجعل أبا بكر عاملا لهذه المدينة خلفاً لمن يسميه « القائد أبا يعقوب بن على » ؛ وانظر كذلك أويثى : على بن يوسف وأعماله فى الأندلس ص ٩٦ ، ١٠٤

(٣) البيان المغرب ، ورقة ٣١ مكرر ؛ أويثى : على بن يوسف . . . ص ٩٨ — ٩٩

إلى مراكش والتحدث إلى أمير المسلمين بنفسه حول ذلك ، والرسالة التى وجهها على بن يوسف إلى أهل الأندلس بهذه المناسبة ، ويمكن أن نلحق بذلك هذه الرسالة الثانية التى وجهها الأمير إلى ابنه أبى بكر يحثه على بذل أقصى الجهد والمال فى سبيل حماية المسلمين وتجنب عودة مثل هذه الحملات النصرانية إلى التكرر .

وأهم ما فى هذه الرسالة التى احتفظ لنا بتاريخها (٢٧ صفر سنة ٥٢٠ أى ٢٤ مارس ١١٢٦) أن على بن يوسف قد أسند بمقتضاها إلى ابنه أبى بكر قيادة الجيوش بجزيرة الأندلس : « ... وقد رأينا ... أن نقدمك على جميع الجيوش بتلك الجزيرة ... عموما يشمل من كان هناك منها ومن وصل من هذه العدوة ... إليها ، وخاطبنا عمالك بالسمع منك والطاعة لك » ، ولم ينص أى مرجع تاريخى مما وصل إلينا على هذه التولية إلا أنها ثابتة لنا بحكم هذه الرسالة ، ومعنى ذلك أن القيادة العليا للجيوش الأندلسية قد أسندت إلى أبى بكر فى نفس الوقت الذى كان يتولى فيه حكم إشبيلية إذ أننا نعرف أنه لم يعزل عن هذه المدينة إلا فى رجب سنة ٥٢٢ (يولية ١١٢٨)[١] .

وربما كان مما يؤكد صحة ما جاء فى هذه الرسالة من تعيين أبى بكر قائداً عاما بالأندلس ذلك الخبر الذى نقله ابن عذارى[٢] وذكر فيه أن أبا بكر توجه فى جيوشه من إشبيلية إلى غرناطة التى كان يحكمها أخوه أبو حفص عمر ابن على فدخلا المدينة فى أجمل هيئة واستعرضا معا جيوش هذه المنطقة وبقى أبو بكر بظاهر غرناطة أياما ثم قصد إلى شرق الأندلس واقتحم فى طريقه حصنا كان الروم قد تملكوه غدراً فنصب عليه الحرب ودخله عنوة وامتلأت أيدى المسلمين بكثير من الأسلحة والآلات والمتاع ، ثم عاد إلى غرناطة ومنها

---

(١) البيان المغرب ، ورقة ٥١ ؛ أويثى : على بن يوسف ... ص ١٠٨
(٢) البيان المغرب ، ورقة ٣٣ ؛ أويثى : على بن يوسف ... ص ١٠٢

توجه راجعا إلى إشبيلية . وفى هذا الخبر ما يدل على أن سلطة أبى بكر بن على بن يوسف كانت أكبر من سلطة مجرد عامل لأمير المسلمين على إحدى المدن الأندلسية وهو ما يمكن أن نفسره بما تنص عليه الرسالة من إسناد القيادة العليا إليه .

ويذكر صاحب « مفاخر البربر »[١] أن أبا بكر أسند إليه عمل غرناطة ولكننا لا نجد فى غير هذا الكتاب تأكيداً لهذا الخبر إلا ما يذكره ابن الخطيب نقلا عن الملاحى فى معرض الحديث عن الأمير المرابطى أبى بكر ابن ابراهيم بن أبى يحيى المسوفى الصحراوى إذ يقول إنه ولى غرناطة فحدث خلاف بينه وبين قومه فقبضوا عليه ووجهوه إلى على بن يوسف ، فآثر الإبقاء عليه ؛ فابن الخطيب يعلق على ذلك الخبر بقوله : « وعندى أن الأمر ليس كذلك ، وأن الذى جرى له ذلك أبو بكر بن على بن يوسف بن تاشفين ، فليتحقق»[٢] .

على أن الذى نعرفه بوجه التأكيد أن أبا بكر بن على قد عزل بعد ذلك عن إشبيلية وعن مركز قيادة الجيوش بالأندلس فى رجب سنة ٥٢٢ (يوليه ١١٢٨) ، ويقول ابن القطان فى سبب ذلك « وفيها [فى سنة ٥٢٢] استرعى على بن يوسف البيعة لابنه سير فعقدت له البيعة بقرطبة ، وفيها عزل على ولده أبا بكر عن إشبيلية وغربه مكبولا إلى الصحراء لأمر نسب إليه لأنه لم يرض بيعة أخيه »[٣] ، ويبدو أن أبا بكر الذى رأيناه منذ صباه وشبابه حاد الطبع شديد الاعتداد بنفسه لم يرض عن تولية أخيه سير العهد ، ولعله كان يرى نفسه أحق بذلك إذ أنه كان أكبر إخوته مما جعله يكثر الخوض فى ذلك حتى عزله أبوه ونفاه إلى الصحراء كما نرى من هذا النص .

---

(١) ص ٨٢
(٢) الاحاطة (ط. عنان) ١/٤١٦
(٣) نظم الجمان ورقة ٣٣ ب .

وقد بقى أبو بكر فى المغرب مدة ، ويظهر أن أباه رضى عنه بعد ذلك ، إذ أننا نراه يسند إليه بعض مناصب القيادة على جيوش المرابطين التى كانت تحاول إخماد الثورة الموحدية فى المغرب ، وينص المؤرخ الموحدى البيذق على أن جيوش ابن تومرت أحرزت نصراً كبيراً على أبى بكر فى منطقة السوس[١] ، ثم عاد الموحدون فألحقوا به هزيمة عظيمة فى أغمات بعد مقتلة شديدة استمرت ثمانية أيام[٢] ، وأخيراً اشترك أبو بكر فى قيادة الجيوش المرابطية التى انتصفت بعد ذلك من الموحدين وأوقعت بمحمد بن تومرت فى سنة **٥٢٤** (**١١٣٠**) تلك الهزيمة المشهورة فى الوقعة التى عرفت باسم « البحيرة »[٣] .

وفى سنة **٥٣٣** توفى ولى العهد سير بن على فجعل على بن يوسف ولاية العهد بعده إلى ابنه تاشفين ، فعاد أبو بكر إلى إبداء سخطه وتذمره ، إذ رأى نفسه — وهو أكبر إخوته — منحًّى عن ولاية العهد مرة أخرى ، ولما ضاق به أبوه أمر بنفيه ثانية ، ويقول فى ذلك ابن عذارى : « أمر [على ابن يوسف] عند ذلك بإخراج ابنه أبى بكر من مراكش وحمله إلى الجزيرة الخضراء ليسجن بها لأنه خاف من خوضه فى أمور ، فأصاب أبا بكر مرض فكان الرجال يحملونه على أعناقهم ، ووصل المذكور إلى الجزيرة فسجن بها

---

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ١٣١ من النص العربى و ص ٢٢٢ من الترجمة الفرنسية ؛ وانظر كذلك كتاب أويثى عن « تاريخ الدولة الموحدية » A. Huici: *Historia política del Imperio Almohade*, I, p. 70. هذا ونص البيذق يسميه « بكو بن على بن يوسف » ويحتمل هذا إما أن يكون تحريفاً لاسم « أبى بكر » (وسنرى فى معرض بعض الوقائع الأخرى أن ابن أبى زرع والسلاوى يسميانه أبا بكر بالفعل) ، وإما أن يكون ذلك هو اللقب الذى عرف به والذى حرف فى النسخة المطبوعة من « الحلل الموشية » إلى « بكور » كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢/١١٨ — ١١٩ ؛ السلاوى : الاستقصا ٢/٨٤ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ورقة ٣٩ ب ؛ وقد سماه المرجعان الأولان « أبا بكر » والثالث « بكو » ؛ هذا وقد تحدث عن هذه الوقعة صاحب الحلل الموشية (ص ٩٢) وابن خلدون دون الاشارة إلى أحد هذين الاسمين ؛ وانظر ما كتبه عنها أويثى فى « تاريخ الدولة الموحدية » ١/٨٠

(٣) السلاوى : الاستقصا ٢/٨٠ — ٨١ ؛ وقد نقل السلاوى هذا النص عن تاريخ ابن خلدون (العبر ٦/٢٢٨) إلا أن ابن خلدون يسميه هنا « بكر بن على » لا أبا بكر كما ذكر السلاوى .

ولم تطل مدة محبسه هذا إلى أن هلك »[١] ، وهكذ مات هذا الأمير بعد حياة مضطربة صاخبة .

ونضيف إلى ذلك أنه كان لأبى بكر بن على هذا ابن يدعى يحيى اشترك بعد ذلك فى القتال الذى دار بين الموحدين والمرابطين فى أواخر أيام هؤلاء ، فقد أشار ابن الأبار إلى يحيى هذا الذى كان يلقب بابن الصحراوية ، وقال إنه كان عاملا لعمه تاشفين بن على على تلمسان فى الوقت الذى أحدقت فيه جيوش الموحدين بسائر مدن المغرب فى سنة ٥٣٩ (١١٤٤/١١٤٥) ، وكان خبر موت عمه تاشفين قد بلغه والموحدون ضاربون حصارهم على المدينة فلم يسعه إلا أن يسلمها لعبد المؤمن ويخرج عنها[٢] . وتذكر المراجع التاريخية بعد ذلك فى أخبار سنتى ٥٤٢ و ٥٤٣ أن شخصاً يسمى يحيى بن أبى بكر الصحراوى قام بإعلان الثورة على الموحدين فى مدينة سبتة بعد أن كانت قد خضعت لهم ، وقد درس المستشرق الإسبانى الأستاذ كوديرا هذه الثورة وانتهى منها إلى أن يحيى المذكور هو الذى أشار إليه ابن الأبار فى النص السابق ، واستدل على ذلك بقطعة من النقود عثر عليها أخيراً ، وهى دينار من الذهب مضروب فى سبتة سنة ٥٤٣ مكتوب فيه « . . . المهدى الذى يشرك النبى ، أمير المسلمين يحيى بن أبى بكر بن على بن يوسف »[٣] . على أن كوديرا كان قد اعتبر اسم « أبى بكر » مجرد كنية للأمير سير بن على بن يوسف جاعلا من هذين الأخوين شخصاً واحداً ، ولهذا فإنه لم ير مفرًّا من القول بأن يحيى هذا كان ابنا لسير وإن كان قد استغرب أن يسمى مرة باسمه ومرة بكنيته[٤] ، وقد أوضحنا صحة الأمر فى ذلك فيما سبق بما فيه الكفاية .

---

(١) البيان المغرب ، ورقة ٤٩

(٢) الحلة السيراء (ط. دوزى) ص ١٩٨

(٣) انظر تعليق كوديرا على ذلك وتفصيل أخبار ثورة سبتة فى بحثه عن « بنى تاشفين » ص ١٥٤ — ١٥٥

(٤) نفس المرجع ص ١٦٠ — ١٦١

الرسالة الرابعة

كاتب هذه الرسالة هو ابن أبى الخصال ، وهى صادرة عن على بن يوسف من حضرة مراكش لخمس بقين من ذى الحجة سنة ٥٢٣ (٢٨ ديسمبر ١١٢٩) .

أما الوحيدى الذى وجهت إليه الرسالة فإنه بغير شك أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن عمر القيسى المالقى(١) ، وكان من عائلة وجيهة عرفت بالعلم والنباهة ، ولد فى سنة ٤٥٦ ، وكان فى شبابه مقبلا على لذاته وإن لم يترك طلب العلم ، فقد درس الفقه والحديث على القاضيين أبى المطرف الشعبى وأبى الوليد الباجى ، ثم انقطع للعبادة والعلم ، وولى القضاء بريه ، ثم ببلده مالقة ، واستمرت ولايته ثمانية عشر عاما ، فلما آنس فى نفسه ضعفا وكبرة استعفى من القضاء وقبض يده عن أخذ الجراية كالمعتاد لأمثاله من القضاة ، وما زال يلح على الأمير فى ذلك حتى أعفاه ، وتوفى فى ٢٦ من المحرم سنة ٥٤٣ ، ودفن بمسجد حكمه الذى ظل يحمل اسمه فى داخل أسوار مالقة حتى القرن الثامن الهجرى على ما يذكر النباهى .

وأما هذه الرسالة التى وجهها إليه على بن يوسف فإنها تطلعنا على بعض جوانب صورة النظام الحاكم والإدارة فى عهد المرابطين ، والعلاقة بين السلطتين القضائية والتنفيذية ، ومدى اختصاص القضاة فى المناطق التى يَلُونَ عملهم فيها ، ومبلغ رعاية سلاطين المرابطين لشئون رعيتهم وإقرار العدل بينها .

---

(١) انظر ترجمته فى ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ٦٤٧ ؛ الضبى : بغية الملتمس ، ترجمة ٩٠٢ ؛ ابن دحية : المطرب ص ٢١٨ ؛ النباهى : المرقبة العليا ص ١٠٤ — ١٠٥ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٥٥ ، المقرى : نفح الطيب ٤/٣٦١ — ٣٦٣

وينبغى أن نبين أولا أن هذه الرسالة الموجهة إلى قاضى مالقة لم تكن مجرد خطاب مرسل إليه من قبل السلطة العليـا ، بل إنها كانت فى الوقت نفسه أشبه ببيان رسمى عام تعلنه الحكومة على الشعب الأندلسى أجمعه ، ويدل على ذلك هذه الإشارة الخاصة التى جاءت بعد نهاية نص الخطاب : « . . . ليقرأ الكتاب على الكافة بالمسجد » ، وفى هذا ما يضاعف من قيمة الرسالة إذ أنها ليست خاصة بحالة معينة محدودة ، بل هى أشبه بدستور تسنه الدولة ، وتحدد فيه اختصاص السلطة القضائية والعلاقة بينها وبين سائر السلطات .

ومناسبة هذه الرسالة هى أن وفوداً من أهل مالقة وأعمالهـا على ما يظهر كانت قد حلت بعاصمة المملكة « مراكش » متوجهة بظلاماتها أو « أرفاعها » — كما تقول الرسالة — إلى حضرة الأمير على بن يوسف ، وأن الأمير فى تيقظه واستقامته وتحريه وجه الحق — وهو ما لم ينكره أحد من المؤرخين على على بن يوسف[1] — رأى أنه قد يختلط فى هؤلاء الشاكين والمتظلمين المحق بالمبطل ، والصادق بالكاذب ، وهكذا قرر ألا ينظر فى ظلامات الجميع شارعا لذلك قاعدة محددة : هى أنه لن تقبل شكاية من أحد إلا إذا كان معها بيان من قاضى بلده يدل على صحة ظلامته .

وهو يتبع ذلك بالحديث عن واجبات القضاة ، ولا شك فى أن هذا البيان الذى تتضمنه رسالة على بن يوسف يزيد فى اختصاصات القضاة ودائرة أعمالهم ، فهو يكل النظر فى كل تلك الظلامات إلى قضاة البلدان حتى لا يتجشم المظلومون مشقة السفر إلى العاصمة لعرض شكاواهم على السلطان .

---

(١) انظر ما كتبه حول ذلك ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢/٩٤ ، الحلل الموشية ص ٦٩ ، السلاوى : الاستقصا ص ٥٣ — ٥٥ ، وانظر الفصل الذى كتبه عن المرابطين عامة المستشرق الاسبانى فرانسسكو كوديرا فى كتابه « انحلال دولة المرابطين . . . » ص ١٨٩ — ٢٢١ ، ويكاد كوديرا يكون أحد المؤرخين الأوربيين القلة الذين أنصفوا حكم المرابطين — ولا سيا حكم على بن يوسف — من العبارات الظالمة التى صورهم بها دوزى .

ولهذا فهو يخاطب الوحيدى قائلا : « وقد قلدناك تقليداً تاماً أن تنظر بجهتك من شكاوى العامة فى اللطيف والجليل » ، ويأمره بتقضى أحوال الرعية ومراقبة عمالها وولاتها . فمن رأى منه ظلما أو تقصيراً فلينه أمره إلى « صاحب البلد » أى حاكم الإقليم ، فإن أنفذ عزله وإلا فليكتب بأمره إلى أمير المسلمين ؛ وفى هذا ما يدلنا على أن سلطة القاضى أصبحت فوق سلطة الحاكم الإدارى فهو الرقيب على هذا الحاكم وعلى الولاة والعمال التابعين له ، وهو المسئول عن ذلك كله وعليه تقع تبعة ما يحدث من ظلم العمال والولاة ، والسلطان موافق له فى كل ما يقرر كما يظهر من قوله له « وأى عذر لك وقد شددنا من أزرك ؟ . . الخ » .

ثم إن فى الرسالة إشارة إلى ناحية مهمة من نواحى النظام القضائى فى المغرب والأندلس على عهد المرابطين تلك هى الوظائف التى كان يتولاها من يسمونه بـ « الحكام » ، ووظيفة « الحاكم » هذه ليست عملا إدارياً كما قد يبدو من هذا اللفظ لأول وهلة ، وإنما هى وظيفة قضائية خالصة كان يطلق على متوليها كذلك لقب « صاحب الأحكام » ، ويرجع وجود هذه الوظيفة إلى أواخر عهد الخلافة الأموية فى الأندلس كما ذكر الأستاذ ليفى بروفنسال[1] ، على أنها تبدو بشكل واضح مفصل فى عهد الدولة المرابطية ، وفى الرسالة الموجهة إلى القاضى الوحيدى والتى هى موضوع هذه الدراسة بيان واف بأحكام هذا المنصب . نشير هنا إلى أهم جمله « ومدار هذا الأمر اختيار « الحكام » الذين استنبتهم فى أقطارك القاصية ونصبتهم فى الجهات النائية . . . الخ » ثم يمضى محدداً الشروط التى ينبغى أن تتوفر فى هؤلاء الحكام من ثقة وديانة

(١) انظر تاريخ إسبانيا الإسلامية ٣/١٢٦ — ١٢٧ ، وقد اعتمد الاستاذ بروفنسال فى التدليل على ذلك بما ورد فى كتاب « الأحكام الكبرى » لابن سهل وفى عدة تراجم لبعض هؤلاء « الحكام » جاءت فى « صلة » ابن بشكوال و « تكملة » ابن الأبار ورسالة ابن عبدون فى الحسبة .

وأمانة وعفاف وزهد وتحفظ ، وللقاضى — كما يبدو من عبارات الرسالة — سلطة مطلقة فى تعيين هؤلاء وعزلهم وعقابهم دون رجوع إلى أمر السلطان نفسه ولا أمر عامله على الإقليم .

الرسائل الخامسة والسادسة والسابعة

كاتب هذه الرسائل الثلاث هو أبو بكر ابن القصيرة الذى كان كاتباً من قبل للمعتمد بن عباد ثم ليوسف بن تاشفين وبعد ذلك لابنه على ، على أن هذه الرسائل التى هى موضوع بحثنا إنما ترجع إلى عهد هذا الأمير الأخير كما ينص على ذلك جامعها ، والخامسة والسادسة منهما وجهتا من عاصمة الدولة المرابطية مراكش ، أما السابعة فإن على بن يوسف وجهها من « محلته بظاهر قرطبة » أى أنها كتبت فى الأندلس خلال إحدى الزيارات العديدة التى قام فيها السلطان المرابطى بالجواز إلى هذا الجزء من مملكته . ولم يحتفظ لنا الجامع بتواريخ هذه الرسائل غير أنه يمكن أن نقول إن جميعها كانت فى الفترة الواقعة بين سنة ٥٠٠ وهى التى ولى فيها على بن يوسف أمر المغرب والأندلس بعد وفاة أبيه وسنة ٥٠٨ التى كانت فيها وفاة ابن القصيرة .

ويجمع بين هذه الرسائل أنها كلها تقريباً وصايا من السلطان المرابطى إلى رعيته الأندلسيين . وجماع هذه الوصايا يكاد ينحصر فى تقوى الله ، والاتحاد واجتناب التفرق والحزازات ، ثم طاعة ولاة السلطان وعماله والبعد عن التشغيب عليهم والعصيان لأوامرهم ؛ والروح الدينية هى الغالبة على كل هذه الرسائل وهو أمر تميزت به الدولة المرابطية وجميع أمرائها ، كذلك يبدو لنا من الإلحاح على دعوة الأندلسيين إلى الطاعة والانقياد ما يدلنا على أن الأمور كانت قد بدأت تضطرب على الحكم المرابطى منذ السنوات الأولى لإمارة على بن يوسف ،

حتى إننا نراه مضطراً إلى توجيه هذا الإنذار الشديد إلى رعاياه من الأندلسيين كما نرى فى الرسالة السابعة التى كتبها من ظاهر محلته بقرطبة حيث يقول : « وإياكم والخوض فى أمر جعلناه إليه [إلى واليه على بعض الأعمـال] ، واحذروا من تعقب ما صغر أو كبر عليه ، وأضربوا عنه ، ودعوا ما لا يعنيكم منه ، وليرشد خياركم شراركم ، وليبصر كباركم صغاركم ، وحسبنا هذا إنذاراً لكم ، وإعذاراً إليكم ، ولا عذر بعد ، ولا يَلُمْ من تعدى إلا نفسه » .

وشيء آخر نستنتجه من هذه الرسائل هو اتجاه الحكم المرابطى إلى ضرب من « اللامركزية » فى إدارتهم . فنحن نرى على بن يوسف فى الرسالة السادسة يقول عن واليه إنه « بلساننا متكلم ، وعما فى ضميرنا مترجم ، وفى قالب رأينا مفرغ . . . ما أمضاه أمضيناه ، وما وقفه وقفناه » ؛ وفى الرسالة السابعة يعود إلى مثل ذلك وفى نفس هذا العبارات تقريباً إذ يقول « قد فوضنا إليه فى ذلك كله ، وأفردناه النظر فى دقه وجله . . . وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه ، وما قاله فيه فكأنما نحن قلناه . . . الخ » .

الرسالتان الثامنة والتاسعة

كاتب هاتين الرسالتين هو ابن القصيرة ، وأولاهما وجهت عن على بن يوسف من مراكش دون تحديد لتاريخها ، أما الثانية فقد وجهت من محلة الأمير بظاهر مدينة سبتة فى يوم الاثنين منسلخ ذى الحجة سنة ٥٠٦ (١٧ يونيه ١١١٢) ويجمع بين الرسالتين أن كلتيهما تصور مركز الفقهاء فى الدولة المرابطية ، وهو أمر كثرت كتابة المؤرخين القدماء والمحدثين عنه ، فهو فى الرسالة الأولى التى يبدو أنه وجهها إلى أحد عماله يأمره أن يستشير أحد الفقهاء فى مختلف أمور الحكم : « فينبغى أن تشاوره فى كل ما تأتى وتذر ، وتورد

وتصدر ، وتقدم وتؤخر » ، وإذا كنا قد لاحظنا مما رأيناه فى الرسائل السابقة أن نظام الحكم المرابطى كان متجهاً إلى « اللامركزية » بحيث كان لعامل الأمير سلطة واسعة فى التصرف فى أمور الحكومة دون رجوع إلى السلطان فإننا نجد هنا خاصية أخرى من خصائص حكم المرابطين ، وهى « الديمقراطية » ، والواقع أن حكم المرابطين منذ إمارة يوسف بن تاشفين كان ذا طابع ديمقراطى إلى حد بعيد ، فقد كان سلاطينهم لا يكادون يبتون فى أمر إلا ورجعوا فيه إلى كبار أهل الرأى ، وإذا قدرنا غلبة الروح الدينية على حكم المرابطين فإنه يمكن أن نخلص من ذلك إلى أن « أهل الرأى » هؤلاء إنما كانوا كبار الفقهاء وأصحاب الفتوى ، وقد كان يوسف بن تاشفين على ما يذكر المترجمون له « يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم ويأخذ فيها برأيهم ويقضى على نفسه بفتياهم »[١] وسار على بن يوسف على نهج أبيه فى ذلك ، فرد أحكام البلاد إلى القضاة وعول على الفقهاء[٢] بل إننا نجد مظهراً واضحاً « لديمقراطية » على بن يوسف عند أخذه البيعة لمن يخلفه بعد وفاته[٣] فإنه لم يكتف باستشارة من جرت العادة بطلب رأيه من الفقهاء والعلماء ، بل إننا نراه يتوجه إلى المسجد الجامع فيجمع الناس فيه خاصة وعامة ويعرض عليهم الأمر فينادون كلهم فى صوت واحد بإسناد العهد إلى تاشفين فلم يسعه حينئذ إلا أن ينزل على حكمهم ويعقد لتاشفين البيعة ، وأما تاشفين فإن الأخبار التى حفظت عنه تدل على أنه اقتدى بأبيه وجده فى ذلك .

والرسالة التاسعة تؤكد لنا هذه الناحية فعلى بن يوسف فيها يعبر عن غضبه واستيائه لما كانت تقابل به أحكام « الفقيه قاضى القضاة بالشرق » من اعتراض

(١) ابن عذارى : البيان المغرب (القسم المرابطى) ورقة ١٨

(٢) الحلل الموشية ص ٦٩ ، ابن أبى زرع : روض القرطاس ٧٩/٢

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة (ط. عنان) ٤٥٥/١ ، ابن عذارى : البيان المغرب (المرابطى) ورقة ٤٧

طائفة من الناس فى هذه المنطقة ، وهو لهذا يحث عامله عليها على حماية جانب هذا القاضى وإنذار المعترضين عليه بتوقيع أشد العقاب عليهم إن لم يدعوا مخالفة أحكامه وأوامره .

هذا ويستوقف النظر هنا لقب « قاضى قضاة الشرق » ، والمعروف أن اللقب الذى كان يتخذه قضاة الأندلس فى قرطبة على عهد الخلافة الأموية هو « قاضى الجماعة » الذى كان يشبه لقب « قاضى القضاة » بالمشرق ، على أنه حينما انفرط عقد الخلافة الأموية عاد قضاة قرطبة إلى اتخاذ لقب « قاضى القضاة » تقليداً للرسوم المشرقية[١] ، ويبدو أن المرابطين أدخلوا على النظام القضائى تعديلا له أهميته حينما آلت الأندلس إلى حكمهم إذ أنهم قسموها إلى ثلاث مناطق إدارية كبيرة : الشرق والغرب والموسطة كما سبق أن أشار إلى ذلك الدكتور حسين مؤنس فى تعليقه على إحدى الوثائق المرابطية التى نشرها[٢] .

هذا ولم نهتد إلى معرفة شخصية « قاضى القضاة بالمشرق » المذكور وإن كنا نعتقد أنه يمكن أن يكون أبا أمية ابرهيم بن عصام المعروف بابن منتيل الذى توفى سنة ٥١٦ (١١٢٢ — ١١٢٣) وهو يتولى هذا المنصب[٣] .

الرسالة العاشرة

هى من تأليف ابن القصيرة أيضاً ، كتبت عن على بن يوسف من حضرة مراكش وهى مجهولة التاريخ وإن كان يغلب على الظن أنها صدرت

---

(١) انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٣/١١٨ — ١٢٠

(٢) سبع وثائق جديدة : صحيفة المعهد مجلد سنة ١٩٥٤ — ص ٧٣

(٣) انظر ترجمته فى قلائد العقيان ص ٢٠٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢/٢٥٨ ؛ ابن الأبار : التكملة (الجزء الأول ، ط. بن شنب بالجزائر) ص ١٧٣ ؛ ابن الأبار : معجم أبى على الصدفى ، رقم ٤١ ص ٥٦

عن الأمير فى أوائل أيام حكمه أى فى نحو سنة ٥٠٠ (١١٠٦) ، إذ أنها رد على كتاب بيعة ورد إليه من بعض أعمال مملكته بالأندلس ، ويعد الأمير فيه بأن يولى أهل البلد ما يستحقونه من الرعاية والاهتمام ، ويقول إنه أنفذ إليهم مع كتابه هذا صكا « يحملون فيه على ما تضمن كتاب بيعتهم » .

الرسالة الحادية عشرة

من إنشاء ابن القصيرة أيضاً من حضرة مراكش ، وتاريخها آخر ذى الحجة سنة ٤٩٩ (١ سبتمبر ١١٠٦) ، ومعنى ذلك أن هذا الكتاب إنما وجه عن على بن يوسف قبل وفاة أبيه يوسف بن تاشفين بيوم واحد ، إذ أننا نعلم أن يوسف توفى فى مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ (٢ سبتمبر ١١٠٦)(١)، بعد مرض استطال منذ سنة ٤٩٨ ، ونفهم من الرسالة التى بين أيدينا أن يوسف بن تاشفين حينما اشتد به المرض أسند إلى ابنه وولى عهده علىّ التصرف فى أمور الدولة باسمه(٢) .

وقد جاء فى الرسالة أن الأمير تلقى الكتاب الذى وجهه إليه عدد من الفقهاء لم يثبت جامع الرسائل أسماءهم ، وكان قد تكفل بحمل هذا الكتاب سفارة تتألف من بعض رجالات الأندلس ، فأطلع هؤلاء أمير المسلمين على

---

(١) انظر روض القرطاس ٢/٧٧ والبيان المغرب (القسم المرابطى) ورقة ١٧ وهذان المرجعان يذكران أن وفاته كانت فى يوم الاثنين مستهل شهر المحرم ، أما ابن خلكان (وفيات ٦/١٢٠) فإنه يذكر أن يوسف توفى لثلاث خلون من شهر المحرم .

(٢) ويدل على ذلك ما ذكره ابن عذارى فى البيان المغرب (ورقة ١٨) من أنه فى سنة ٤٩٩ قرىء كتاب نفذ من « ولى العهد » (أى على بن يوسف) فى إشبيلية بعزل قاضيها ، مما يدل على أنه كان يتصرف فى أمور الحكم نيابة عن أبيه ، كذلك ذكر ابن عذارى أنه لما استأثرت العلة بأمير المسلمين أوصى بالأمر إلى ولده ولى عهده (أى على) فاضطلع أبرع اضطلاع وقام أحمد مقام... الخ

أحوال هذا الجزء الكبير من المملكة المرابطية ، كما تذكر الرسالة أن الأمير أبا الطاهر (يعنى تميما بن يوسف أخا على) قد تقدم بجلاء أحوال هذه البلاد ، وكان تميم بن يوسف قبل ذلك واليا لأبيه على شرق الأندلس حتى بلغه مرض أبيه فانتقل إلى مراكش فى خلال سنة ٤٩٩ كما ينص على ذلك صاحب البيان المغرب[١] .

ونلاحظ أن الحديث عن أمثال هذه السفارات قد تكرر فى تلك الرسائل مما يدلنا على أن اهتمام أمراء المرابطين بالأندلس لم ينقطع طيلة عهدهم حتى فى الوقت الذى اضطربت فيه عليهم بلاد المغرب من جراء بوادر الثورة التى أضرمها عليهم محمد بن تومرت المهدى .

الرسالة الثانية عشرة

تشابه هذه الرسالة التى سبقتها فى كثير من النواحى فالموضوع تقريبا هو نفسه ، ولهذا فإننا نرجح أنها كتبت فى نفس السنة التى وجهت فيها الرسالة المتقدمة أى سنة ٤٩٩ ، ولعلها كانت قبل هذه بقليل إذ ينص كاتبها على أنها رد على رسالة بعثها أحد عمال المرابطين على الأندلس فى مستهل ذى القعدة (أغسطس سنة ١١٠٦) ، على أن لها أهمية خاصة فهى تشير إلى وفد قدم إلى مراكش متألف من أعلام مدينة بلنسية ، وكانت بلنسية قد دخلت فى طاعة المرابطين منذ أن استنقذها قائدهم مزدلى فى سنة ٤٩٥ (١١٠٢) بعد أن ظلت طيلة ثمانى سنوات تحت حكم السيد القنبيطور El Cid Campeador ، ولنا أن نتصور أن مهمة هذه السفارة كانت إطلاع يوسف بن تاشفين على آخر تطورات الموقف فى الأندلس عامة وفى شرق الأندلس بوجه خاص ، ويبدو أن هذه

---

(١) ورقة ١٧

السفارة وصلت إلى مراكش فى الوقت الذى كانت العلة فيه قد اشتدت بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين كما سبق أن بينا فى التعليق على الرسالة السابقة ، وهذا هو ما يفسر أن المضطلع بتوجيه هذا الكتاب إنما كان هو ولى العهد على بن يوسف .

كذلك نرى فيها إشارة إلى اجتماع على بن يوسف بأخيه أبى الطاهر تميم وما ألقى به هذا إليه من وصف أحوال « تلك الجهات » (أى بلنسية وشرق الأندلس) بصورة وافية مفصلة ، وهذا يتفق مع ما ذكره ابن عذارى من أن تميما كان فى هذه السنة (٤٩٩) يتولى شرق الأندلس ، ثم إنه لما بلغته علة أبيه توجه إلى مراكش فى نفس هذه السنة ، ولعله قدم على رأس تلك السفارة التى تتحدث الرسالة عنها[1] .

وتشير الرسالة إلى شخصية أخرى قدمت مع هذا الوفد ، إلا أن الاسم لم يذكر كاملا إذ هو فى النص «أبو عبد الله محمد بن أبى [ويتلو ذلك بياض صغير] » ، ونرجح أن يكون تمام الاسم « . . . بن أبى بكر اللمتونى » ، وكان هذا من أكبر قواد المرابطين الذين اتصلوا اتصالا مباشراً بمحنة بلنسية حينما استولى عليها السيد القنبيطور ، وذلك بشهادة ابن عذارى الذى يذكر أن أهل شرق الأندلس كانوا قد خاطبوا يوسف بن تاشفين بفساد بلادهم منذ أن أخذ بمخنقها الفارس القشتالى المشهور فتحرك يوسف إلى سبتة وأقام هناك يجند الأجناد وجعل قيادة تلك الجيوش وأمرها إلى نظر ابن أخيه الأمير أبى عبد الله ، ويزيدنا ابن عذارى تعريفا به فيقول إنه كان ابن أخى يوسف بن تاشفين لأمه[2] ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب الحلل الموشية كذلك وإن كان

---

(١) البيان المغرب ورقة ١٧

(٢) انظر القطعة التى نشرها ليفى بروفنسال من البيان المغرب فى مقاله الذى كتبه عن « استيلاء السيد على بلنسية » : E. Lévi-Provençal: *La toma de Valencia por El Cid*, en Al-Andalus, vol. XIII, 1948, p. 115.

خبره شديد الإيجاز[١] ، وقد أفاض ابن عذارى فى الحديث عن الوقائع الدائرة ببلنسية ، وبين لنا كيف أعمل السيد الحيلة على القائد المرابطى الذى كان مريضاً فى هذا الوقت حتى هزم قواته واقتحم محلته مما تسبب فى غضب عمه يوسف بن تاشفين عليه مدة ، ثم عاد إلى الرضا عنه وأمره بلزوم شاطبة وقطع الطرق إلى بلنسية ، وما زال يمده بالأموال والرجال حتى عظم جيشه ، إلا أنه كتب إليه بعد ذلك يأمره بالقدوم عليه وأرسل مكانه لتولى قيادة الجيوش أبا الحسن على بن الحاج[٢] . وأبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن تاشفين هو الذى نراه بعد ذلك والياً على قرطبة من قبل على بن يوسف فى سنة ٥٠١ (١١٠٧)[٣] .

وتذكر الرسالة أيضا أن على بن يوسف أصغى إلى الأعيان الواردين من قبل « يحيى بن تاشفين » و « محمد بن تومرت » . أما يحيى بن تاشفين فحول اسمه وشخصيته خلاف كبير بين المؤرخين ، ونعتقد أنه هو الذى ذكره ابن عذارى باسم أبى بكر يحيى بن تاشفين وقال إنه كان ابن عم على بن تاشفين شقيق أبيه لأمه[٤] ، وإذا ذكرنا أن ابن عذارى قال أيضا فى الحديث عن نسب أبى عبد الله محمد بن أبى بكر اللمتونى أنه كان ابن أخى يوسف بن تاشفين لأمه فإنه يمكن أن نستنتج أن محمداً ويحيى هذا كانا أخوين ، ويكون اسم يحيى الكامل إذن هو أبا بكر يحيى بن أبى بكر بن تاشفين ، وهو الذى نعلم مما أورده عنه ابن عذارى أنه ولى على قرطبة فى سنة ٥٠٩ (١١١٥—

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٧ من النص العربى و ٨٥ من ترجمة الأستاذ أويثى الاسبانية وقد ذكره صاحب الحلل باسم « محمد بن تاشفين » فقط .

(٢) انظر القطعة المشار إليها من البيان المغرب ص ١١٨ — ١١٩ وانظر ما كتبه حول ذلك بوسك فيلا فى كتابه عن المرابطين ص ١٥٦ — ١٥٩

(٣) البيان المغرب ورقة ١٦ وانظر مقال أويثى *Alī b. Yūsuf y sus empresas en el-Andalus,* en Tamuda, 1959, p. 110.

(٤) البيان المغرب ورقة ٢٠

١١١٦) بعد مصرع واليها محمد بن مزدلى[١] ولعله هو نفسه الذى يذكره ابن أبى زرع والسلاوى[٢] قائلين إنه توجه إلى لاردة فى سنة ٥١١ (١١١٧) مع عبد الله بن مزدلى مُمِدَّيْنِ لتميم بن يوسف فى جهوده لرد النصارى عن حصار هذه المدينة ، ويبدو أنه ظل حاكما على قرطبة حتى سنة ٥١٤ (١١٢٠— ١١٢١) حينما خلفه عليها يحيى بن رواد[٣] .

وأما « محمد بن تومرت » فإن الإشارة إلى شخص يحمل هذا الاسم فى تلك الرسالة المرابطية على الصورة الواردة هنا أمر محير حقاً . فمن الواضح أنه لا يمكن أن يكون بطل الثورة على المرابطين ومهدى الموحدين ، ويبدو كذلك من الغريب أن يكون أحد رجالات المرابطين وأن يوافق اسمه اسم مؤسس الدولة الموحدية على هذا النحو دون أن يستحق ذلك التوافق الغريب إشارة من مؤرخى الدولة المرابطية أو الموحدية . هذا وإن كنا نعرف أن اسم « تومرت » لم يكن غريباً على المغرب والأندلس قبل محمد بن تومرت المهدى فقد تسمى به من قبل كاتب أندلسى عاش فى القرن الرابع الهجرى وتوفى سنة ٣٩١ هـ. قبل مولد تومرت أب المهدى بسنوات كثيرة كما نبه على ذلك الباحث المستشرق جولدتسيهر[٤] .

أتراه خطأً من الناسخ إذ أقحم اسم محمد بن تومرت هنا سهواً ؟ لا نستطيع أن نقطع بذلك ونكتفى بأن نعرض هنا هذا الاسم كما جاء فى الرسالة التى بين أيدينا لعل أحداً يهتدى إلى علة وجوده فى هذا السياق .

---

(١) نفس الموضع السابق .

(٢) روض القرطاس ٢/٨٨ (وقد حرف الاسم إلى « ابن يحي بن تاشفين ») والاستقصا ٢/٦٠ (إلا أنه سماه « أبا يحي بن تاشفين ») .

(٣) انظر مقال أويثى المشار إليه ص ١١٠

(٤) انظر كتاب أويثى عن تاريخ الدولة الموحدية ٢٦/١

أما باقى فقرات الرسالة فيدور حول اهتمام أمير المسلمين بهذه المنطقة المشرقية من الأندلس ، ويبدو من عباراتها مدى ما أصاب هذه الناحية من جراء احتلال السيد لبلنسية وإضرار المسيحيين بها واهتمام الحكومة المرابطية بتحصينها وإلقاء الطمأنينة فى قلوب أهلها .

الرسالة الثالثة عشرة

من إنشاء ابن القصيرة أيضاً ، وهى موجهة من الأمير على بن يوسف من حضرة مراكش فى يوم الأربعاء دون تحديد لليوم وإن كان قد ذكر الشهر والسنة (محرم سنة ٥٠٠ = سبتمبر سنة ١١٠٦) أى بعد أيام من تنصيب على بن يوسف على عرش المغرب والأندلس بعد وفاة أبيه ، ويبدو من الرسالة أنها موجهة إلى أهل أحد الأعمال الأندلسية بالانصياع والطاعة لواليه على هذا البلد وهو شخص يسمى « أبا محمد عبد الله بن محمد » ، وإذا تأملنا الأخبار التى احتفظت لنا بها المراجع عن حكام الأندلس فى هذه الفترة فإنه يسهل علينا أن نستنتج أن هذا الحاكم المقصود ينبغى أن يكون أبا محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة ، أما الجهة التى تنص الرسالة على توليته عليها فينبغى أن تكون بلنسية .

أما ابن فاطمة المذكور فقد كان أحد مشاهير القواد المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين وابنه على ، وقد اضطربت المراجع التاريخية فى اسمه كعادتها عند الحديث عن رجالات هذه الفترة ، إذ نجد ابن أبى زرع والسلاوى يسميانه فى بعض المواضع أبا عبد الله محمد بن فاطمة[1] وتابعهما على ذلك

---

(١) روض القرطاس ٣/٧٦ ، الاستقصا ٢/٥٩

بعض الباحثين المحدثين[١] والواقع أن هذا خطأ ، والصواب فى الاسم أنه أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة ، وقد أمدنا « البيان » المرابطى عنه بأخبار مفصلة تطلعنا على نشاطه العسكرى والإدارى فى الأندلس والمغرب ، ونعرف من هذه الأخبار أنه تولى قيادة جيش قوامه ألف وخمسمائة فارس مدداً للقائد مزدلى بن سلنكان الذى استنقذ بلنسية فى سنة ٤٩٥ (١١٠٢) من أيدى المسيحيين بعد استيلاء السيد القنبيطور عليها ، وكان توجه ابن فاطمة إلى شرق الأندلس فى سنة ٤٩٦ (١١٠٣)[٢] ، وفى السنة التالية يسند إليه يوسف ابن تاشفين القيادة العليا لجيوش المرابطين فى منطقة شرق الأندلس ويشترك بحكم هذا المنصب العسكرى مع عامل بلنسية أبى الحسن على بن الحاج الذى اجتمع به فى قلهرة Calahorra فى مهاجمة قوات ألفونسو السادس ملك قشتالة حينما تصدى هذا لمدينة سالم ، وقد قام الاثنان معاً بغزو طليطلة وطلبيرة[٣] ، ونحن نعرف أن أبا الحسن على بن الحاج وجد ميتاً بعد هذه الغزوة ، ويبدو لنا أن يوسف بن تاشفين عهد إليه بأن يخلف ابن الحاج على ولاية بلنسية بعد هذه الغزوة[٤] ، وفى رجب سنة ٤٩٧ (أبريل ١١٠٤) يتوجه إلى سهلة بنى رزين Albarracin فيستولى على هذه المملكة الصغيرة ويضمها إلى سلطان المرابطين[٥] ، ويبدو أن ابن فاطمة ظل عاملا ليوسف بن تاشفين بقية أيام

---

(١) مثل بوسك فيلا فى كتابه عن المرابطين ص ١٦٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ — ١٨٣

(٢) البيان المغرب ورقة ١٥

(٣) نفس المرجع ورقة ٦١ ، ومقال أويثى عن « على بن يوسف وأعماله فى الأندلس » ص ٩٣

(٤) يذكر ابن خلدون (العبر ١٨٨/٦) أن يوسف ولاه على بلنسية خلفاً لمزدلى بن سلنكان الذى استقدمه يوسف بن تاشفين إلى المغرب ، وقد تابعه على ذلك أويثى فى مقاله المشار إليه ص ١١٣ ، على أن ما ذكرناه أشبه بالصواب .

(٥) ابن الكردبوس : الاكتفا ، حسب الترجمة الانجليزية لباسكوال دى جاينجوس .Append p. XLIII ، وانظر كتاب بوسك فيلا عن المرابطين ص ١٦٦

حكمه . وأن على بن يوسف حينما خلف أباه على العرش أقره على منصبه ، وفى رمضان سنة ٥٠١ (مايو ١١٠٨) نراه بصفته عاملا على بلنسية مشتركا مع القائد ابن عائشة عامل مرسية فى الغزوة الموفقة التى قادها تميم بن يوسف بن تاشفين ضد جيوش قشتالة وهى المعروفة بغزوة أقليش Uclés التى هزم فيها المسيحيون هزيمة ساحقة وقتل شانجه بن ملك قشتالة ألفونسو السادس[١].

وفى سنة ٥٠٣ (١١٠٩—١١١٠) تحرك ابن فاطمة إلى سرقسطة طامعا فى ملكها بعد وفاة المستعين أحمد بن هود وولاية ابنه عماد الدولة عبد الملك فلما انتهى إلى مقربة منها توجه إليه نفر من أهلها وطلبوا إليه أن ينصرف عنهم ولا يبدأ الفتنة خشية استصراخ ابن هود بالنصارى ، فأقلع عن سرقسطة[٢] .

وفى آخر هذه السنة صدر أمر على بن يوسف بعزل ابن فاطمة عن بلنسية وتعيينه عاملا على غرناطة خلفاً لأخيه تميم بن يوسف فوصل إلى مقر حكمه الجديد قبل آخر ذى القعدة سنة ٥٠٣ (مايو سنة ١١١٠)[٣] وظل حاكما لهذه القاعدة نحو سنة إذ أننا نجده يترك هذه المدينة فى سنة ٥٠٤ (١١١٠—١١١١) ويخلفه عليها مزدلى بن سلنكان ، ويظهر أن على بن يوسف عينه فى هذه السنة عاملا على مدينة فاس بالمغرب حيث بقى عدة سنوات[٤] ، وفى شهر المحرم من سنة

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ، ورقة ٧ ، روض القرطاس ٨٢/٢ ، الاستقصا ٥٧/٢ ؛ وانظر الحديث بالتفصيل عن دور ابن فاطمة فى هذه المعركة فى الرسالة التى وجهها تميم بن يوسف إلى أخيه على عن هذه الوقعة ، وقد نشر هذه الرسالة الدكتور حسين مؤنس فى مقاله « الثغر الأعلى الأندلسى . . . » ص ١٠٧ — ١٠٨ ، وقد أعاد الأستاذ أويثى نشرها فى كتابه « المعارك الكبرى لحرب الاسترداد المسيحية ص ١٢٠ — ١٢٦ ، وانظر مقال أويثى عن « وقعة اقليش ومصرع الأمير شانجه » — مجلة تطوان ص ١٩٥٧ — العدد الثانى ص ١٢٤ — ١٢٥

(٢) البيان المغرب ورقة ٢٢

(٣) البيان ورقة ٢٢ ، وانظر مقال أويثى عن «على بن يوسف وأعماله بالأندلس» ص ١١٢

(٤) مقال أويثى المذكور ص ١١٢

٥٠٩ (يونية ١١١٥) يعود ابن فاطمة إلى الأندلس عاملا على إشبيلية بعد عزل واليها يحيى بن سير بن أبى بكر ، ويظل على حكم هذه المدينة حتى وفاته فى رمضان سنة ٥١١ (يناير سنة ١١١٨)[١] .

أما الرسالة التى بين أيدينا فإن على بن يوسف — فيما نرى — وجهها إلى أهل بلنسية معاما إياهم بإقرار ابن فاطمة على حكم هذه الجهة إذ أنه قد كان يتولى حكمها خلال السنوات الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين .

الرسالة الرابعة عشرة

هذه الرسالة من إنشاء أبى القاسم ابن الجد ، وهى موجهة من أمير المسلمين على بن يوسف بحضرة مراكش إلى الكاتب ابن أزرق ، بتاريخ الثالث عشر من محرم سنة ٥١٤ (١٤ أبريل سنة ١١٢٠) ، وفيها يستدعيه إلى حضرة مراكش لاستخدامه فى ديوان إنشائه .

ولم نستطع التحقق بشكل قاطع من شخصية ابن أزرق المذكور ، على أننا نرى أنه يمكن أن يكون هو الأديب الأندلسى الذى يترجم له ابن الأبار والضبى[٢] تحت اسم أبى بكر يحيى بن همام بن يحيى المعروف « بابن أزراق [كذا] السرقسطى » ، ويقول ابن الأبار إنه كان كاتبا للمستعين أبى جعفر ابن هود ، ثم كتب ليوسف بن تاشفين ولابنه على وكان أول استدعائه إلى مراكش فى سنة ٤٩٥ . وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٧ .

---

(١) البيان ورقة ٥١ ، مفاخر البربر ص ٨١ ، نظم الجمان ورقة ٤ ب ، وقد ذكر ابن أبى زرع (روض ٢/٨٦) والسلاوى (استقصا ٢/٥٩) أنه ولى على إشبيلية فى سنة ٥٠٧ وأنه توفى فى سنة ٥١٠ ، على أن ما جاء فى البيان أجدر بالتصديق والثقة .

(٢) التكملة ، ترجمة رقم ٢٠٣٩ ؛ بغية الأنفس ، رقم ١٤٩٦

الرسالة الخامسة عشرة

من إنشاء ابن الجد أيضاً ، وهى موجهة من على بن يوسف من حضرة مراكش إلى أحد عماله فى تاريخ لم يحتفظ به جامع الرسائل .

على أننا استطعنا أن نتعرف على هذا العامل وعلى التاريخ الذى وجهت فيه الرسالة ، فقد احتفظ لنا بنص هذه الرسالة مرجعان : أولهما كتاب « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان[١] والثانى الجزء المرابطى المخطوط من كتاب « البيان المغرب »[٢] وكلاهما ينص على أن هذه الرسالة وجهت إلى أبى محمد عبد الله ابن فاطمة العامل على إشبيلية ، أما تاريخها فقد نقله ابن عذارى إذ ذكر أنه سنة ٥١٠ (١١١٦—١١١٧) .

وأما موضوعها فوصية من الأمير يبدو أنه كان معتاداً على تجديدها وتكرارها إلى عماله وولاته بالتزام الرفق بالرعية وإقامة العدل بينها ورفع الحجاب عن المظلومين والشاكين .

الرسالة السادسة عشرة

من إنشاء ابن الجد ، وهى موجهة من على بن يوسف بحضرة مراكش ، إلى أهل بعض أعماله فى تاريخ لم يذكر ، هذا وقد احتفظ ابن خاقان فى « قلائده » أيضاً بهذه الرسالة ناصاً على أنها كانت إلى أهل غرناطة وعلى أن تاريخها هو يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٥٠٧ (٢٧ فبراير سنة ١١١٤)[٣] ،

---

(١) ص ١١٢ — ١١٣
(٢) ورقة ٢٨
(٣) ص ١١٣

وقد كان يحكم غرناطة فى هذا الوقت القائد المرابطى المشهور مزدلى بن سلنكان فاتح بلنسية على ما يستنتج الأستاذ أويثى من نص « البيان » الخاص بتاريخ المرابطين[1] ، فقد خلف مزدلى هذا عبد الله بن فاطمة على حكم غرناطة فى سنة ٥٠٤ (١١١٠—١١١١) ، وأضيف إليه مع غرناطة حكم قرطبة والمرية ، وقد ظل مزدلى يقاوم هجمات القشتاليين على الأندلس فى بسالة وشجاعة حتى قتل فى ميدان المعركة فى شوال سنة ٥٠٨ (مارس سنة ١١١٥) ، وخلفه على حكم غرناطة ابنه عبد الله بن مزدلى .

وموضوع الرسالة هو تقريع أهل غرناطة على تشغيبهم وكثرة تحاملهم وتعصبهم على واليهم ، ودعوتهم إلى التزام الطاعة والهدوء ، وفى هذا ما يطلعنا على هذه النزعة التمردية التى كانت تسود أوساط الأندلسيين ضد حكامهم من المرابطين ، على الرغم من الجهود التى لم يقصر هؤلاء فى بذلها لحماية الأندلس من هجمات المسيحيين المتزايدة ، وقد كانت حياة القائد العظيم مزدلى صورة رائعة للمحارب الذى قضى عمره فى معركة دائمـــة ودفع حياته ثمناً لجرأته واستبساله ، وإن الذى يتأمل حياة هذا الرجل ليزداد إعجابه به فى كل الميادين التى خاضها من سياسية وعسكرية ، ومع ذلك فإن الأندلسيين لم يكفوا عن إبداء تذمرهم وسخطهم على هؤلاء الولاة .

الرسالة السابعة عشرة

من إنشاء ابن الجد ، وهى موجهة من على بن يوسف بحضرة ملكه مراكش إلى شخص لم يحتفظ لنا جامع الرسائل — مع الأسف — باسمه ،

(١) انظر مقاله عن « على بن يوسف وأعماله بالأندلس » ص ٩٠—٩٢ ، ١١٢

بتاريخ عشرين أو واحد وعشرين من ربيع الأول سنة ٥١٠ (٢ أو ٣ أغسطس سنة ١١١٦) وموضوع الكتاب هو تولية لهذا الشخص الذى وجهت إليه الرسالة على جزيرة ميورقة .

ولهذه الرسالة قيمة عظيمة إذ أنها تطلعنا على تفاصيل تاريخية لفترة لا يعرف عنها الكثير من تاريخ الجزائر الشرقية فى السنوات الأولى لاستيلاء المرابطين عليها .

ونحن نعلم أن يوسف بن تاشفين حينما جاز إلى الأندلس واستولت جيوشه على ممالك الطوائف عازلا عنها هؤلاء الأمراء الذين أثبتوا ضعفهم وعجزهم وتخاذلهم لم يتعرض بسوء للأمير الذى كان يحكم الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة منذ سنة ٤٨٦ (١٠٩٣) ، وكان فى هذا الوقت مبشر بن سليمان الملقب بناصر الدولة ، ولعل يوسف بن تاشفين اتبع فى علاقاته بمملكة الجزائر الشرقية نفس السياسة التى اختطها مع بنى هود ملوك سرقسطة والثغر الأعلى ، إذ رأى أن كلتا المملكتين تقوم حائلا بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين ثم إن أمراءها لم يحالفوا النصارى المتاخمين لهم ضد جيوش المرابطين ولم يقفوا من الدولة الإسلامية موقف الخيانة والتقاعس الذى وقفه غيرهم من ملوك الطوائف(١) ، بل إن الذى تدلنا عليه المراجع هو أن مبشر بن سليمان أمير الجزائر الشرقية كان أكثر غيرة من بنى هود على مصالح المسلمين وأقدر على حماية عمله من غارات النصارى فضلا عن أنه أقر العدل وأحسن الحكومة وأرضى الرعية ، وهكذا لم يتعرض له يوسف بن تاشفين بسوء ، وبقى مبشر

---

(١) انظر ما كتبه عن العلاقات بين المرابطين وبنى هود فى هذه الناحية الدكتور حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين ص ١٠٤ — ١٠٥

يحكم الجزائر الشرقية فى عهده وفى السنوات الأولى من حكم ابنه على بن يوسف حتى سنة ٥٠٨ (١١١٤)[١] .

وفى هذه السنة كانت الحملة التى ائتلفت بعض الممالك المسيحية فى غرب البحر الأبيض على توجيها إلى الجزائر الشرقية ، وقد اشترك فى هذه الحملة أهل بيزة وجنوة وإمارة برشلونة إذ سيروا أسطولا مكوناً من نحو ثلاثمائة قطعة بحرية إلى جزيرة يابسة أولا فحاصروها حصاراً شديداً ، واستبسل فى مقاومتهم عامل الجزيرة الذى تسميه المراجع المسيحية Abunazare (أبا نصر ؟) إلا أن القوات المتحالفة استطاعت الاستيلاء على الجزيرة ، وأقبلت بعد ذلك على النهب والتخريب بأفظع صورة ممكنة . ثم توجهوا إلى جزيرة ميورقة فضربوا عليها حصاراً شديداً ، وأبلى مبشر بن سليمان ناصر الدولة فى مقاومة المهاجمين أعظم البلاء ، إلا أنه كان قد شعر بأنه لم يكن له قبل بالاستمرار فى القتال فأرسل إلى أمير المسلمين على بن يوسف يستصرخه ، وحمل رسالته إلى أمير المسلمين قائد مرابطى يسمى أبا عبد الله ابن ميمون كان يقود فى هذا الوقت سفينة راسية فى ميناء ميورقة حينما وقع عليها هجوم المسيحيين ، فخرج ابن ميمون سراً من الميناء دون أن تفطن إليه أساطيل المحاصرين للجزيرة ، غير أنهم شعروا به أخيراً ، فتوجهت بعض سفنهم لمطاردته ولكنه تمكن من الفرار .

وشدد المسيحيون الحصار على ميورقة طوال عشرة أشهر حتى استولوا عليها أخيراً ، وكان مبشر ناصر الدولة قد مرض وتوفى فى أثناء الحصار فخلفه أحد قرابته واسمه أبو الربيع سليمان (وتسميه المراجع المسيحية Burabé) وواصل هذا

---

(١) عن مبشر بن سليمان ناصر الدولة ، انظر ابن سعيد : المغرب ٢/٤٦٦ — ٤٦٧ ؛ ابن خلدون : العبر ٤/١٦٥ ؛ ابن الكردبوس : الاكتفا (حسب الترجمة الانجليزية التى ذيل بها باسكوال دى جاينجوس ترجمته لكتاب نفح الطيب) Vol. II, — Appendix C p. XLVII-XLVIII. وانظر كذلك : Prieto y Vives: *Los reyes de taifas*, p. 41; Campaner y Fuertes: *Bosquejo histórico de la dominación islamita en las islas Baleares*, p. 91 y sigts.

المقاومة بمثل بسالة سلفه ولكن النصارى أفلحوا فى الاستيلاء على معاقل الجزيرة وقد تم ذلك فى سابع ذى القعدة ٥٠٨ (٣ أبريل ١١١٥) فألحقوا بها من الخراب ما يجل عن الوصف[١] .

أما على بن يوسف فإنه لم يصله صريخ مبشر حتى أمر باتخاذ العدة لاستنقاذ ميورقة من أيدى القراصنة المسيحيين الذين أطبقوا عليها فأسرع على الفور بتجهيز أسطول كبير يتألف من ثلاثمائة قطعة وأسند قيادته إلى القائد المرابطى ابن تافرطست . وما إن شعر القراصنة باقتراب الأسطول المرابطى منهم حتى عزموا على الجلاء عن الجزيرة بعد أن قتلوا كثيراً من أهلها وأسروا كثيرين آخرين وأضرموا النيران فى المدينة ، وهكذا دخل ابن تافرطست الجزيرة دون مقاومة بعد أن أخلاها غزاتها من النصارى ، وكان ذلك فى سنة ٥٠٩ (١١١٥ — ١١١٦)[٢] .

أما ولاة المرابطين على ميورقة فإن أسماءهم ومدد ولايتهم من المسائل المضطربة فى كتب المؤرخين أشد الاضطراب خلال السنوات العشر المنقضية بين سنة ٥٠٩ و ٥٢٠ حينما عقد على بن يوسف بولاية الجزر الشرقية لقائده المشهور محمد بن على بن يحيى المسوفى المعروف بابن غانية فى سنة ٥٢٠ (١١٢٦) .

ولعل ابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذى أولى هذه الفترة بضعة سطور فى موضعين من تاريخه[٣] ومجمل قوله فيهما أن على بن يوسف ولى على ميورقة

---

(١) انظر كامبانير إى فورتس : Op. cit., p. 119.

(٢) فى هذه الحوادث انظر ما كتبه كامبانير إى فورتس فى بحثه الذى أشرنا إليه عن « تاريخ الحكم الإسلامى فى جزر البليار » ص ٩٦ — ١٣٥ ، وهو بحث عظيم الفائدة اعتمد فيه كاتبه على المراجع الإسلامية والمسيحية على السواء ؛ وانظر كذلك كوديرا : انحلال المرابطين ص ١٦٧ — ١٧١ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ؛ وأخيراً بوسك فيلا : المرابطون ص ١٩١ — ١٩٢ ، وهو مجرد ملخص لما كتبه المؤرخان المذكوران .

(٣) ابن خلدون : العبر ١٦٥/٤ ، ٢٤٢/٦ ؛ والترجمة الفرنسية للبارون دى سلان تحت عنوان *Histoire des Berbéres,* (II, p. 206—207 ed. Paris 1927). وكامبانير إى فورتس : المرجع المذكور ١٣٦ — ١٣٧

من قبله وانور بن أبى بكر اللمتونى فعسف بأهل الجزيرة وأرادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر فامتنعوا عليه ، وأوقع بهم نتيجة لذلك فقتل زعيم هذه الحركة ، وحينئذ أعلنوا الثورة على وانور وصفدوه و بعثوا إلى على ابن يوسف فأعفاهم منه وولى عليهم محمد بن على بن غانية الذى كان يتولى قرطبة فى هذا الوقت تحت إمرة أخيه يحيى بن على بن غانية العامل على غرب الأندلس ، ولما وصل ابن غانية صفد وانور و بعث به إلى مراكش ، وكان ذلك فى سنة ٥٢٠ ه .

وقد علق كوديرا على هذا النص فبين أن فيه عدة أخطاء تاريخية ، ثم عرض تاريخاً تقريبيا لهذه الفترة وفق فيه بين ما قاله ابن خلدون وما ذكره غيره من المؤرخين مثل عبد الواحد المراكشى وابن الكردبوس ، وهذا هو ما يراه كوديرا فى تاريخ عمال المرابطين على ميورقة منذ استيلائهم عليها حتى تولية محمد بن غانية عليها :

تم فتح ميورقة بعد جلاء الجنويين والبيزيين والقطلانيين عنها فى سنة ٥٠٩ على يد ابن تافرطست قائد الأسطول المرابطى الذى توجه لاستنقاذ الجزر الشرقية ، وكان أول ما فعله هذا القائد هو تأمين الجزر و إصلاح مدنها وبناؤها من جديد ، وقد رغب ابن تافرطست جنوده وبحارته فى الإقامة بالجزيرة والاستقرار بها فعاد إليها أهلها الذين كانوا لاذوا بالجبال عند وقوع الغزو المسيحى ، ويبدو أن إقامة ابن تافرطست على حكم الجزيرة كانت مؤقتة ريثما يتم تعيين عامل عليها ، وقد وصل هذا العامل بالفعل خلال نفس هذه السنة وكان قائدا مرابطيا هو وانودين بن سير الذى ظل حاكما لها فترة قصيرة لا تزيد على ثلاثة أشهر ، ثم خلفه أبو بكر تاكراتت ، وأعقب هذا وانور بن محمد الذى ثار عليه أهل الجزيرة لأنه أمرهم ببناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر ، فتمكن الثوار من القبض عليه وصفدوه وبعثوا إلى أمير المسلمين مبينين له ما وقع ، فقبل على بن يوسف عذرهم ، وولى عليهم فى هذه الأثناء أبو

بكر على بن ورقاء الذى توفى على الأرجح فى سنة ٥٢٠ ، وحينئذ عهد أمير المسلمين بحكم الجزيرة إلى محمد بن غانية[1] .

والرسالة التى بين أيدينا هنا تضيف جديداً إلى ذلك ، هذا وإن كان جامع الرسائل لم يحتفظ لنا مع الأسف باسم العامل الذى وجهت إليه هذه الرسالة . على أننا نخلص منها بأن جزيرة ميورقة تعاقب عليها ثلاثة عمال فى الفترة القصيرة الواقعة بين استنقاذها من أيدى النصارى فى سنة ٥٠٩ وأوائل سنة ٥١٠ (١١١٥—١١١٦) . وأول هؤلاء العمال هو المذكور فى تلك الرسالة بكنيته « أبى السداد » الذى ورد على مراكش الخبر اليقين بموته كما تنص الرسالة على ذلك ، ويصرح الأمير بأنه لم يقر أبا السداد على ميورقة إلا بشكل مؤقت « إقرار منعة وفى سبيل قلعة » على ما تقول الرسالة وهو ما يمكن أن نفهم منه أن تعيين أبى السداد كان لغرض عسكرى بحت ، وتضيف الرسالة إلى ذلك « وغرضنا كان أن نولى عليها من يصلح من أعيان الرجال فإنها بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوس أمرها ويحوط أهلها » ، ويبدو أن موت أبى السداد المفاجىء حمل أهل الجزيرة على أن يولوا بعده ابنه دون رجوع إلى أمر على بن يوسف ، وأن ابن أبى السداد قد أساء الحكومة وأوحش أهل الجزيرة وروعهم حتى إن أمير المسلمين لم ير بأسا فى أن يلقبه فى هذه الرسالة بـ « السفيه المعتوه » وأن يطالب عامله الجديد بأن يزيل الأثر السيء الذى خلفه فى نفوس الرعية حكم ابن أبى السداد .

وإذا قابلنا بين ما جاء فى هذه الرسالة والقليل الذى نعرفه عن ولاة ميورقة قبل سنة ٥٢٠ فإنه بوسعنا أن نلاحظ تشابها له دلالته بين ما تذكره المراجع من حكم وانور بن أبى بكر اللمتونى وعسفه بأهل الجزيرة وما تشير إليه الرسالة من حكم ابن أبى السداد مما يجعلنا لا نستبعد أن يكون هذان

---

(١) انظر كوديرا : انحلال المرابطين ص ١٧٠ — ١٧١

شخصا واحدا ، وإذا صح ذلك فإن الرسالة التى بين أيدينا قد تكون وجهت إلى أبى بكر على بن ورقاء الذى كان آخر عامل على ميورقة قبل أن يولى عليها محمد بن غانية . وربما كان من الأدلة على ذلك ما سبق أن ذكره ابن خلدون من أن وانور بن أبى بكر هذا أراد أهل الجزيرة على بناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر فامتنعوا من ذلك فقتل زعيم هذه الحركة وترتب على ذلك ثورة أهل الجزيرة عليه وحبسهم إياه ومكاتبتهم الأمير فى عزله عنهم (١) ، ففى الرسالة ما يوصى بالإشارة إلى ذلك الحادث : « واسع بحسن سياستك فى استرجاع من خرج من جيرانهم واجتهد فى صرفهم إلى أوطانهم حتى يكثر بفضل الله عددهم وينجبر بلدهم » .

وفى نهاية الرسالة إشارة إلى الأسطول وضرورة اهتمام عامل الجزيرة به ، ويبدو أن مقر قيادة الأساطيل الأندلسية فى ذلك الوقت كان مدينة دانية ، وقد كان من الطبيعى بعد مهاجمة القراصنة الجنويين والبيزيين والقطلان للجزر الشرقية أن تهتم الحكومة المرابطية بزيادة قوتها البحرية وتشديد الحراسة على سواحل الأندلس وجزرها كما تدل على ذلك الفقرة الأخيرة من الرسالة .

الرسالة الثامنة عشرة

تدلنا هذه الرسالة على ناحية من نواحى حكم المرابطين للأندلس ، إذ هى خاصة بتولية قاض لبعض أعمال البلاد ، ونستدل من هذه الرسالة على أن حكم المرابطين كان — كما أشرنا إلى ذلك من قبل فى هذه التعليقات — حكما ديمقراطيا شوريا إلى حد بعيد ، فقد كان اختيار القضاة موكولا إلى أهل البلاد نفسها لا فرضا من أمير المسلمين عليهم ، حتى حين قدم أهل البلد اسمى رجلين

(١) ابن خلدون : عبر ٤/١٦٥ ، ٦/٢٤٢

لكى يختار الأمير أحدهما آثر هذا ألا يقطع فى الأمر وترك ذلك لأهل البلد حتى يقوموا هم بانتخاب واحد منهما ، على أن ذلك لم يكن منه تفريطا أو إهمالا ، إذ ينص فى آخر الرسالة على أنه إن استمر بهم الخلاف ولم يستقروا على أحدهما فإنه سيرى نفسه مضطراً إلى أن يضطلع بذلك مخرجا الأمر عنهم .

كذلك تدلنا الرسالة على أن السلطة القضائية كانت تتمتع باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية ، ولو كان الأمر غير ذلك لترك الأمير مسألة اختيار أحد الرجلين لمنصب القضاء إلى عامله على البلد .

الرسالتان التاسعة عشرة والعشرون

ليس فى هاتين الرسالتين أكثر من إعطائنا نموذجا لكتابة اثنين من أعلام الأدب الأندلسى فى هذه الفترة وهما أبو بكر بن القبطرنه والفتح بن خاقان ، أما الأولى فإنها كما ذكر جامع الرسائل « فى الحض على قتل الجراد »[1] ، ومع ذلك فإن الكاتب يخصص جل الرسالة لإطلاعنا على مدى براعته اللفظية واقتداره على الأسجاع وتوليد الصور كأن الغاية منها هى إظهار افتنانه وسعة اطلاعه ، أما الرسالة الثانية فهى من هذا الطراز وتزيد على هذه بما ملأ به ابن خاقان عباراتها من الملق والنفاق والتقرب إلى القاضى الذى وجهت إليه

---

(١) أمدنا ابن القطان فى كتابه « نظم الجمان » بأخبار وافية مفصلة عن إضرار الجراد بزرع الأندلس فيما بين سنتى ٥٢٧ و ٥٣١ هـ . (١١٣٢ — ١١٣٦ م .) ، فقد تتبع أخبار ذلك فى دقة بالغة (انظر الأوراق ٧٢ ب ، ٧٤ ب ، ٧٨ ب ، ١٧٩) ، وقد اختص بالذكر سنة ٥٢٩ (١١٣٤) إذ يقول فى أخبارها : « . . . ومحت الجراد ما على الأرض من زرع وكلأ ، وأمر الناس بالخروج إليها ، فساقوا منها خمسة آلاف عدل وثلاثمائة عدلا ، وما غاب عن العيون أكثر تركت فى الموضع الذى قتلت فيه ولم تحمل » (ورقة ١٧٧) ؛ ولسنا نستبعد أن تكون رسالة ابن القبطورنه المشار إليها هنا عن هذه المناسبة بصفة خاصة .

الرسالة ، وليس هذا غريبا من ابن خاقان الذى كان متهما فى دينه وخلقه ، فهذا الأديب الذى نعرف عنه أنه لم يكن يستفيق من السكر نراه هنا يغدق الثناء على القاضى ويسأله أن يكفى المسلمين شر الخمر بعد أن « استحل حرامها واستسهل مرامها » ! على أن الكلمات تخونه وتكشف عن حقيقة شعوره فإذا بنا نراه ينطلق واصفا الخمر مشبها كئوسها بالدر يحمل ياقوتا ... إلى آخر ما ذكر ...

ولا غرو فهذان الكاتبان إنما هما من نتاج فترة ملوك الطوائف ، وإذا كان ما كتباه يدل على تنطعهما وغلبة الهزل عليهما فإن « أدبهما » فى الواقع لا يمثل لنا إلا نوعا من الانحطاط الفكرى والتكلف فى الأسلوب ، ولهذا فإن نصيهما — إلى جانب قلة قيمتهما من الناحية التاريخية — ليسا جديرين بأن يوضعا فى النصوص الأدبية الأندلسية القيمة .

الرسالة الحادية والعشرون

هذه الرسالة هى الوحيدة التى لم ينص على كاتبها ، وهى موجهة على ما يبدو من أمير المسلمين على بن يوسف من حضرة غرناطة إلى عاصمة ملكه مراكش . وأغلب الظن أن على بن يوسف وجهها فى إحدى المناسبات التى جاز فيها إلى الأندلس برسم الجهاد ، إذ أنه يبشر المسلمين فيها بما قدره الله له من انتصار على النصارى فى بعض غزواته ، ولهذا فهو يأمر بأن تقرأ على الجماهير فى المسجد الجامع . وهو يذكر فيها أنه قد أرسل معها نسخة من رسالة أخرى كتبها « أبو عبد الله محمد بن يسير » فى تفصيل هذا الفتح والحديث عن وقائعه ، ويظهر من ذلك أن كتاب ابن يسير هذا قد وزعت نسخة على جميع أعمال البلاد المغربية والأندلسية حتى يقوم حكامها بقراءته على المسلمين فى المساجد الجامعة ، وهذا يدلنا على أن ذلك الانتصار الذى فتح الله به على أمير المسلمين فى تلك الغزوة كان من الخطر بمكان كبير .

الرسالة الثانية والعشرون

هذه الرسالة الأخيرة لا ترجع إلى فترة حكم المرابطين كما سبق أن بينا . إذ أن كاتبها هو أبو حفص ابن برد المعروف بالأصغر والذى توفى فى سنة ٤٤٥ (١٠٥٣) ، كما أن معظم هذه الرسالة وردت فيما اختار ابن بسام من نثر ابن برد فى كتاب « الذخيرة »[١] .

محمود على مكى

(١) ق ١ — ٢/٢٩ — ٣٠

النصوص

١ — وكتب أبو عبد الله بن أبي الخصال :

[٧٦ ا] كتابنا — أبقاكم الله ، وأكرمكم بتقواه ، وعصم جانبكم وحماه ، وتمم عليكم عوارف نعماه — من فلانة حرسها الله ، وقبلُ ما وفد إلينا وورد علينا الفقيه الأجل المشاور أبو الوليد ابن رشد — أعزه الله بطاعته — ، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة — كلأها الله — وجلّاه ، ووصف من حالها ما أصخنا له حتى استوفاه ، وجال بميدان البيان أفصح مجال ، وعرض الأمور فى معرضها بأبلغ مقال ، فأشفقنا — علم الله — كل الإشفاق ، وتضاعف ما كان عندنا وكيداً لصلة النظر والاشتياق ، ولن نألو[1] جهداً مبذولا ، وجِدًّا حفيلا ، وعزماً لا نابيا ولا كليلا ، فيما ندرأ وندفع ، ونذود عن حوزة الملة ونمنع ، وندأب لذلك [الدأب][2] الحثيث ، ونتبع القديم فيه بالحديث ، وننصب له النصب الذى ليس حبله السحيل ولا النكيث ، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهمّ ، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأتمَّ الأهمَّ ، وجهد الكفاية مادهم حادث وألمّ ، فاستشعروا أن أموركم إزاء ناظر اهتبالنا ، ومن آكد موكدات اشتغالنا ، وقد عاين الفقيه الأجل المتقدم الذكر حقيقة الأمر ، وسيبلغكم ذلك عنه ، فلا تكونوا فى ريب منه ، والله تعالى يعيننا على ما نحن بصدده ، ويمنحنا من تأييده ما يعز الإسلام ويقيم من أَوَدِه ، بحوله وطَوْله ، وعدله وفضله .

---

(١) فى الأصل : نألوا .
(٢) إضافة يقتضيها السياق .

٢ — وكتب عن أمير المسلمين :

[٧٦ ب] كتابنا أعزكم الله بتقواه ، وكنفكم بظل ذراه ، ووفر حظوظكم من حسناه ، من حضرة مراكش — حرسها الله — يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يدى حركتنا يمّن الله فاتحتها وعقباها ، وقد قرعنا الظنابيب ، وأشرعنا الأنابيب ، وضمّرنا اليعاسيب[1] ، واستنفرنا البعيد والقريب ، مستشعرين إخلاص نية ، وصدق حمية ، فى نصر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يضام ، أو يناله من عدوه اهتضام ، ونحن إن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد والأمداد ، ما يربى على الحصى[2] والتعداد ، فإنا نعتقد اعتقاديقين ، بقول رب العالمين ، فى كتابه المبين لرسوله الأمين « قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم[3] » . إن استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السماء بخالص الثناء — من أنفع الأشياء ، وأنجع الدواء فيما أعضل من الأدواء ، وإن الدعاء إذا وافق إجابة يمضى حيث ينبو الحديد المذرَّب ، ويكبو العديد المتهيب ، ولذلكم ما رأينا مخاطبتكم مستنفرين دعاءكم وأدعية[4] من وراءكم من خيار المسلمين وصالحى المؤمنين ، لأن يمدنا الله بالنصر والتمكين والملائكة المؤمنين ، ويقطع بكل من يريد القطع بنا عن حماية الدين ، ويرفع رأيه فى خلافنا من المفسدين المعتدين ، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا أعزكم الله فامتثلوا مذهبنا فيه ، وأشيعوه عند الخاص والعام ، ليرفعوا أيديهم بالتضرع فى أوقات المناجاة والقيام ، ويجمعوا بين تعفير الجباه ، وتحريك

---

(١) قرع الظنابيب كناية عن الإسراع فى الأمر ، والأنابيب الرماح ، ويقصد باليعاسيب الخيل .
(٢) الحصى أى العدد الكثير .
(٣) سورة الفرقان ، آية رقم ٧٧
(٤) فى الأصل : وأوعية .

الشفاه ، تحت جنح الظلام ، ويستوهبوا الله من إعزاز جانبنا ، وإذلال مُجانبنا ، مالهم فيه أوفر الحظوظ والأقسام ، [١٧٧] وهو الكفيل بإنجاز ما وعد به من الإجابة ، لا إله إلا هو ذو الجلال والإكرام ، والطول والإنعام ، والسلام .

٣ — وكتب عنه الى أبى بكر ابنه :

كتابنا يمّن الله أنحاءك ومذاهبك ، وأمّن أرجاءك وجوانبك ، وأسمى بتقواه أحوالك ومراتبك ، من حضرة مراكش — حرسها الله — يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة عشرين وخمسمائة ، وقد وردنا فى اليوم المذكور كتابك الأثير مضمَّناً صفة الحال الجارية ، بحكم الأقدار النافذة الماضية ، وألا صارف لما أمضاه ، ولا معقب لما شاءه وقدره لا إله سواه ، والله جل ذكره الملىء بالخير وأجمل الصنع ، وإصارة المسلمين فى كنف الحماية والمنع ، والذى أتيته وتوخيته من الثبوت[1] والوقوف ، والعمل البادى الصواب والشفوف ، مشكور لك محمود ، فَلْيَطِرْ عليك منك جَدٌّ موجود ، واعتمال لا يكون عليه لمستزيد مزيد ، فهذا وقت بذل النفوس ، فضلا عن الأموال ، التى تدخر لحاجات الرجال ، وهو متعين على الحشوة والكافة ، فكيف علينا أو على من كان منا أو منتسبا إلينا ! فجرِّد عن ساعد اعتزامك ، واستنفد ما يبقى لك ذكراً ، ويذخر أجرا ، متعاقب أيامك ، فيحوز لك خير الدارين ، ويحوز شرف المنزلتين ، وقد رأينا — والله الموفق للصواب — أن نقدمك[2] على جميع الجيوش بتلك الجزيرة — عصمها الله — عموما يشمل من كان هناك

---

(١) فى الأصل : البيوت ، ولعلها كما أثبتنا .
(٢) فى الأصل : يقدمك .

منها ، ومن وصل من هذه العدوة — حرسها الله — إليها ، وخاطبنا عمالك بالسمع منك والطاعة لك ، وأن يطابق كل واحد منهم رأيك ، ويوافق عملك ، وليست الحال الآن كالحال قبلُ ، فإنها الآن يتنوط بك [٧٧ ب] الدِّقُّ منها والجل ، والكُثر والقُل ، فقف إزاء العدو ، وصِلْ فى المدافعة والمواثبة الرواح بالغُدُوّ ، ومل حيث مال ، وصل الاجتهاد والاعمال ، وتشاور مع القواد ، وأهل الرأى من الأجناد ، وابعد عن الاستئثار والاستبداد ، وأيد فى جميع الأنحاء ، وانفذ نفوذ السهم المسدد فى غرضه بعد تردد الارتياء ، وقدم الاستخارة لله تعالى على كل عمل مالكِ الأشياء ، والمتدارك فى اللأواء ، ورتب الناس فى مراتبهم ، وأنزلهم أمكن منازلهم ، واعلم قدر هذا الذى نطناه وعصبناه بنظرك ، فإنه عظيم جدا ، ويتعين عليك أن تقدره حق قدره ، وتستفرغ فيه جهدا وجدا ، ووسع صدرك ، وَابْنِ على الصبر والأناة أمرك ، واحتمل ما تكرهه ، لتنال من مغبة ذلك ما تحمده ، ولا غاية بعد ما لدينا من تطلع وكيد إليك ، وإن أمكنك أن تُعَرِّفنا مع الأيام بالأنباء ، فصل بذلك معهود الاحتفاء ، اِطَّلع الله على السراء ، وتكفل بقمع الأعداء ، بمنه .

٤ ـــ وكتب عنه الى الوحيدى يوصيه :

كتابنا كتب الله أعمالك مبرورة ، ومساعيك مشكورة ، وعرَّفك الآلاء موفورة ، من حضرة مراكش حرسها الله لخمس بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وإن من رتب من الأمر حيث رتبت ، وحسب من القيام بالمهمات حيث حسبت ، لم يسعه أن ينام عن قضية تجرى ببلده ، ولا أن تدركه غفلة عن تفقد ما تحت يده ، وقد تجمعت الآن بهذه الحضرة

عصائب الشاكين ، وكثرت أرفاع[١] المتظامين ، وكان من أمورهم بيّن ومشكل ، [١٧٨] وفيهم محق ومبطل ، فلم يَخْلُ ما كانوا يجيئون به من قول مزور ، وباطل فى صورة الحق مصور ، وعندما التبس الكذب من ذلك بالصدق ، والتف المبطل بالمحق ، صددنا أرفاعهم عن الوصول ، وصرفنا دونها وجه القبول ، وأوعزنا إلى جماعتهم لما خِفناه من تلبيسهم فى الأمور ، وشوبهم المباح بالمحذور ، بأنّا لا ننظر لأحد منهم فى حق يدعيه ، ولا أمر يوجبه أو ينفيه ، إلا بعد أن يأتى ببيان من قاضى بلده ، وكتاب ينطق عن صحة ما بيده ، فانصرفوا وفى نفوسنا — علم الله — من قِبَلِهِمْ ما يشق حمله ، ولا يخف مثله ، فإنه لا يمكن إلا أن يكون فيهم الصادق البر ، والرجل المضطر ، لكن الخيرَ أردنا ، والبر قصدنا ، ولما كان هذا وجب أن نلتمس لأمورهم وجها يتوصل به إلى معرفة الصحيح من السقيم ، والمعوجِّ من القويم ، فوكلنا ذلك إلى قضاة البلدان ، وألزمناهم القيام به والفحص عنه مع الأحيان ، لأن موضوع القضاء إنما هو لرفع المشكلات ، وتمييز الحقائق من المتشابهات ، والفصل بعد التبرم[٢] فى الدعاوى والمنازعات ، ومع هذا فنقول إن هؤلاء الرافعين لو وجدوا فى بلادهم إشكاء[٣] ، وألفوا عند متقلدى الأمور لرد ظلاماتهم وفاء ، لما تجشموا إلينا بعد الشقة ، ولا تحملوا نحونا عظيم المشقة ، ولولا أنّا لا نخليهم من التعسف ، وسوء[٤] التكلف ، لشددنا فى جهة القضاء عارضة الكلام ، ولثقلنا عليهم[٥] وطأة الملام ، وقد قلدناك تقليداً تاما أن تنظر بجهتك من شكاوى العامة فى

(١) جمع « رفع » وكان يطلق فى المغرب والأندلس على الرسالة التى ترفع إلى العامل أو الأمير متضمنة طلبا أو شكاية . انظر ما كتبه عن هذا اللفظ دوزى فى « ملحق القواميس العربية » ١/٥٤٢

(٢) كذا فى الأصل ، وربما كانت تحريفا للفظ « التفهم » .

(٣) أى رفعاً للشكوى وإزالة لأسبابها .

(٤) فى الأصل : وسواء ، ولعلها كما أثبتنا .

(٥) كذا فى الأصل ، وربما كان الأصوب أن يقول « عليه » إلا إذا كان يعنى بهذا الضمير « القضاة » .

اللطيف والجليل ، وسمناك القيام بالخفيف منها والثقيل ، فتفقد ما قبلك حق تفقده ، [٧٨ ب] وتعهده[1] أحق تعهده ، فإنك إذا أمعنت التطلع ، وأدمنت إلى جانب الرعية التلفت والتسمع ، لم يشذ عن علمك ما يجرى ببلدك لاجتماعه وانحصاره ، وتقارب ما بين مسافاته وأقطاره ، وإن حقا على الجار أن يفرج ضغطة جاره ، فاستكشف — وفقك الله — الأحوال وتعرف صورها ، واستعلم مع الرعية شأن الرعية وخبرها ، فكل ما رفعته إليك من أحوالها ، وتظلمت فيه من عُمَّالها ، أجريته مع الحق كيف جرى ، وعممت بالنظر ولم تخص قضية دون أخرى ، فكلٌّ بك معصوب ، وأنت عنه محاسَبٌ وبه مطلوب ، ومدار هذا الأمر اختيار الحكام الذين استَنْبَتَّهُمْ فى أقطارك القاصية ، ونصبتهم فى الجهات النائية[2] ، فشرطهم الثقة والديانة ، والصون والأمانة ، فإنهم إذا كانوا بهذه الصفة جرت أمورهم على سبيلها القاصد ، وسيرها الراشد ، وأمنت فى جهات الرعية والأحكام ، وأمِنًّا بك فيها من اللبس والمداخلة مع الأيام ، فلا تقلد عملك إلا معروفا بلطف النفس والعفاف ، ونقيا يقنع بالكفاف ، ويتنزه عن الإسفاف ، وتحفظ من كل منهوم لا يشبع ، ومُسِفٍّ لا يتورع ، فالحريص أصم أعمى لا يرى ولا يسمع ، وبعد توليتك إياهم فأشرف عليهم إشرافا يتعقب أحوالهم ، فمن رأيت منه[3] جنفاً ، أو نقص عليك من أطراف الحق طرفا ، صرفته مذموما ، وأخرته ملوما ، فتفقد هذا من أمورهم ، فإنك مضطر إليه فى الديانة ، وفيما يباشرونه من أمور الرعية التى لا ترضى بهضمها ، ولا تقرُّ أحداً على ظلمها ، ومما نعيده [١٧٩] ونتقدم[4] إليك فيه أمر اللوازم الجارية هناك أن تتصفحها وتلمحها ، فما لم يكن منها فى عهودنا موجودا ، ولا من قبلنا محدوداً ،

---

(١) فى الأصل : وتعاهده .

(٢) فى الأصل : التايية .

(٣) فى الأصل منهم ولعل الصحيح ما أثبتنا .

(٤) هذه الكلمة مكررة فى الأصل .

ولا فى مصالح المسلمين معدوداً ، فهو رد على كل والٍ رسمه ، ومصروف على كل من ألزمه ، لا يؤدى منه نقير ، ولا يحمل منه فتيل ، وأى عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه ، وعلمت صحة استهدافه وتصديه ، فأْنِه أمره إلى صاحب البلد مستعمله ومُوَلِّيه ، وأشعره بما ثبت عندك فيه ، فإن غل يد أذيته ، وأنفذ عزله عن رعيته ، وإلا فَأَخِفَّ(١) ذلك إلينا فى سائر ما يتوقف لديك من الأمور التى تقصر عنها يدك ، وتنقطع دون النفوذ فيها غايتك وأمدك ، لينفذ من عندنا ما يقف منازعك عنده ، ويسهل لك كل صعب بعده ، ومما تتفقده من أحوال الرعية ما يؤخذ به الحاضر عن الغائب ، ويطلب به الباقى بعد الذاهب ، فهذا الصنف أيضا من الظلامات تبطله وترد حكمه ، وَتُعَفِّى أثره ورسمه ، وأمر الزكوات على تباينها فى الصفة ، وأنواعها المختلفة ، تجرى على موجب فريضتها ، وتوقف على حد شريعتها ، لا تحرف ولا تبدل ، ولا تصرف عن جهتها ولا تعدل ، هذه — أعزك الله — أمثال مضروبة ، وهدايات منصوبة ، وقوانين موضوعة ، وأعلام على طرق الحق مرفوعة ، قد تبرأنا إليك من وزرها ، وتخففنا بإسنادها إلى نظرك من إصرها ، وفى أكثرها كانت الأرفاع تَرِدُ ، وعصائب المتظلمين تحتشد ، وأنت إذا كشفت غيبها(٢) ونفضت طرقها ، وأعطيتها من بحثك [٧٩ ب] وتأملك حقها ، ارتفعت الشبهة ، وانزاحت العلة ، وتوفرت على المسلمين الرحلة ، وهدأت الرعية وتفرغت لأشغالها ، ولزمت صالح أعمالها ، فانظر فى هذه الأمثلة والجمل إلى أقصى ما ينقسم إليه أقسامها ، وقفها على حد ما تقف عليه الشريعة وأحكامها ، واكفنا ما استكفيناك ، وانهض نهوض المستقل بما حَمَّلْناك ، وأى عذر لك وقد شددنا من أزرك ، وعضدنا من أمرك ، وإنَّ تَطَلُّعَنا لوكيد لما نجده عندك من النفوذ . هذه الوصايا

---

(١) أى فعجل بإبلاغه .

(٢) فى الأصل : عيبها .

الجامعة ، والحجة البالغة ، وستبلغنا الأنباء ، ويتصل بنا الثناء ، وبعد ذلك الثواب والجزاء . لا إله غيره والسلام . أعزك الله ليقرأ الكتاب على الكافة بالمسجد ، فإن فيه زجراً للمعتدين ، وأخذاً فوق أيدى المفسدين ، وبلاغا يحمله ويصيره الراكب ، ويتلقاه عن الشاهد الغائب إن شاء الله تعالى .

٥ — وكتب أبو بكر ابن القصيرة عنه موصيا :

كتابنا أبقاكم الله ، وأسبغ عليكم نعماه ، وآواكم إلى كنفه المنيع وحماه ، من حضرة مراكش حرسها الله ، ونحن على أولنا يعلم الله حرصا على ما ينفعكم ، وجريا إلى ما تطمئن به نفوسكم ، ويتمكن تمهيدكم وتودعكم ، حسبما يقتضيه حق الله تعالى علينا فى رعاية من استرعيناهم ، وحياطة من أمرنا بين يدى نظرنا نأمرهم ونهاهم ، إلى مزية بينة لكم مما تقرر عندنا من صحة ولايتكم وصدق صاغيتكم ، واستواء سريرتكم فى طاعتنا وعلانيتكم ، والله يثبت أقدامكم فى مواطن الرضا ، ويهديكم السبل المفضية بكم إلى الحسنى بمنه . ومما نوصيكم به ونحثكم عليه — وهو — ولا [١٨٠] توفيق إلا بالله — مجمع صلاح دينكم ودنياكم ، وداعية انتظام أموركم فى أسلاك مناكم — تقوى الله ، والائتلاف على الرضا والكون فى ذات الحق إخوان وداد ، لا ينطوى بعضكم لبعض على حزازات ولا حرارات أحقاد ، وأن تكونوا لواليكم أبى فلان — أبقاه الله وأعزه بتقواه — على طويات سليمة ، وطريقة له[١] فى الانصياع[٢] له والاقتداء به قويمة ، فيما ذهب إليه مما فيه حماية حوزتكم ، وصيانة حريمكم ، وشد أطرافكم ، وسد ثغوركم ، فوالوه على توليه ، ولتكن أيديكم مع يده على سنن

(١) هذه الكلمة تبدو زائدة لا محل لها هنا .
(٢) فى الأصل : الانطباع .

واحد فيه ، ولا تنكلوا[١] فى حد من حدود ذلك عنه ، ولا تتسللوا[٢] لواذاً منه ، ولن تزالوا — ما سلكتم هذه السبيل ، وتلوتم هذا[٣] الدليل — على حال ترضى أولياءكم ، وتشجى أعداءكم ، إن شاء الله ، وهو هاديكم إلى سبيل الخير ، ومرشدكم إلى قصد الصلاح ، لا رب سواه ، والسلام .

٦ — وكتب أيضا فى الوصاة :

كتابنا أبقاكم الله ، وأكرمكم بتقواه ، ويسّركم لما يرضاه ، ووفر حظوظكم من حسناه ، يوم كذا من عام كذا ، ويتأدى إليكم من قبل واليكم ، وخليفتنا فيكم ، وهو النائب عنا فى تدبيركم ، وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، ليس لأحد معه فى شىء من ذلك يد ، ولا مع مشهده إلا بإذنه وإباحته مشهد ، قد فوضنا إليه فى ذلك كله ، وأفردنا النظر فى دقه وجله ، وكثره وقله ، ولن يألوكم نظراً يصلح أحوالكم ، وينجح أعمالكم ، ويحسن به الله عقباكم ومآلكم ، وهو بلساننا متكلم ، وعَمَّا فى ضميرنا مترجم ، وفى قالب[٤] رأينا مُفْرَغٌ ، وعلى منواله مُسَدّ ومُلْحِم ، ما أمضاه أمضيناه ، وما وقفه وقفناه ، فاسمعوا منه فى ذات الله [٠٨ ب] وأطيعوه ، ولا تخالفوه فيما يراه من مصالحنا ومصالحكم ولا تعصوه ، وما دعاكم إليه فابتدروه ، وما حَدَّ لكم اجتنابه فاجتنبوه ، وإياكم وما يسخطه[٥] من التشغيب عليه فيما ينتحيه ، والفقيه الأجل القاضى أبو

(١) فى الأصل : تتكلوا .
(٢) فى الأصل : يتسللوا .
(٣) فى الأصل : هذه .
(٤) فى الأصل : قلب .
(٥) فى الأصل : يستخطه .

فلان يصل فى ذات الله على سنن الحق يده ، ويقصد مقصده ، وكذلك أولو الرأى من جميعكم يكون معه جماعة ، وعلى حبل ذراعه طاعة ، ويهدون إليه ما يغيب عنه من أمور سائركم ، ويطلعونه على ما يخفى عليه من أحوال أكابرهم وأصاغركم ، حَسْبُنا هذا توصية ، وتذكرة جامعة مستوفية ، ولا حجة بعدُ لمن جار عن السنن ، وخالف الواجب عليه المتعين ، ولا يَلُمْ من خالف عهدنا ، وتعدى قصدنا ، إلا رأيه ونفسه الأمَّارة بالسوء ، وبالله التوفيق ، والسلام .

٧ — وكتب أيضا فى المعنى :

كتابنا أبقاكم الله وسلمكم ، وتولاكم وأكرمكم ، ووقاكم الأسواء وعصمكم ، من محلتنا يَمَّنها الله بظاهر قرطبة — حرسها الله — فى يوم كذا من شهر كذا عام كذا ، ويتأدى إليكم من قبل واليكم وخليفتنا فيكم أبى فلان أبقاه الله ، وأعزه بتقواه ، وهو النائب عنا فى تدبيركم وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، ليس لأحد معه فى ذلك يد ، ولا مصدر ولا مورد ، ولا مقام ولا مقعد ، قد فوضنا إليه فى ذلك كله ، وأفردناه النظر فى دقه وجله ، وكثره وقله ، وحكمناه فى جميعكم : يثيب من استحق الثواب ، ويعاقب من استحق العقاب ، ويكرم أهل الإحسان ، ويهين من أساء أشد الهوان ، ويمتسك منكم بمن أراد ، ويسرح من رأى تسريحه ويبعد من كان سبيله الإبعاد ، وما فعل من ذلك كله [١٨١] فنحن فعلناه ، وما قال فيه فكأنَّا نحن قلناه ، ولا نوقف ما أمضاه ، ولا نمضى ما وقفه وأباه ، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه ، ولا نتولاه — كائنا ما كان — إلا أن يتولاه ، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه ، بلساننا يتكلم ، وعمَّا فى جناننا يترجم ، وعلى

ما يوافقنا يسدى ويلحم ، وإلى ما يرضينا يمضى ويتقدم ، فاسمعوا وأطيعوه ولا تخالفوه ، فلن يعدو وجه القصد ولا تعصوه ، ولا تألوه انقيادا وطاعة ، ولا تدخروا عنه فيما يستعملكم فيه جهدا ولا استطاعة ، وإياكم والخوض فى أمر جعلناه إليه ، واحذروا من تعقب ما صغر أو كبر عليه ، وأضربوا عنه ، ودعوا ما لا يعنيكم منه ، وليرشد خياركم شراركم ، وليبصر كباركم صغاركم ، وحسبنا هذا إنذاراً لكم ، وإعذاراً إليكم ، ولا عذر بعدُ ، ولا يَلُمْ من تعدَّى إلا نفسه ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم .

٨ ـــ وكتب عنه أيضا :

كتابنا أطال الله فى طاعته مدتك ، وأدام بتقواه حرمتك ، وأفاض نعمتك ، وتولى توفيقك وعصمتك ، من حضرة مراكش حرسها الله ، وقد علمت محل ذى الوزارتين الأجل الفقيه الأفضل ولينا أيده الله بتقواه من صدق ولايتنا ، ومكانه من حسن رعايتنا ، وأنه ممَّن يُستشفى برأيه ، ويهتدى بهديه ، ويستثمر النجح من سعيه ، ويتعرف السداد فى رأيه ، فينبغى لك أن تشاوره فى كل ما تأتى وتذر ، وتورد وتصدر ، وتقدم وتؤخر ، فلن تعدم منه مشيرا نصيحا ، وظهيراً مشيحا ، وطبيبا للعلل مريحا ، ورأيا خالصا صريحا ، فامتثل فى ذلك عهدنا ، ولا تتعدَّ فيه حدنا ، وتوخَّ معه من مصالح البلد ما [٨١ ب] يحسن موقعه عندنا ، ويقتضى شكرنا وحمدنا إن شاء الله ، والسلام .

٩ ـــ وكتب عنه :

كتابنا أبقاك الله ، وأعزك بتقواه ، ويسَّرك لما يرضاه ، وجَنَّبك ما يسخطه وينعاه ، من محلتنا يمَّنها الله بظاهر سبتة حرسها الله ، يوم الاثنين منسلخ

ذى الحجة سنة ست وخمسمائة عند ما اتصل بنا وصح عندنا أن الفقيه الجليل الحافظ قاضى القضاة بالشرق أبا[١] فلان أبقاه الله وأعزه بتقواه — قد ضاق صدره ، وقل صبره ، بتعصب أقوام هناك على اعتراض أحكامه ، والشَّرَق بمكانه ، ويزعمون أن شان الحق غير شانه ، وشتان ما بينهم وبينه فى الفضل والدين والسَّنَن المستقيم ، فأنكرنا ذلك أشد النكير ، واعتقدنا فيهم إن لم يكفوا عنه أبلغ التغيير ، وما أظن رأس هذا الحال ، وأصل هذا الخبال ، ينبغى حتى يقع فى خطتى خسف لا حظَّ فيهما لمختار : إما الإخمال والإقعاد ، وإما الإخراج إلى حيث رأينا من البلاد ، فقد برَّح بنا هذا الأمر ، وأضر فيه الحلم والصبر ، فإذا وصلك كتابنا هذا فابذل جهدك فى حسم هذا الداء قبل أن يقابله[٢] بمر الدواء ، وابلغ من حماية جانب الفقيه الأجل القاضى المذكور أعزه الله إلى الغاية التى لا مزيد عليها ولا أمد وراءها ، واعلم أن ستراعى هذا الأمر أتم مراعاة ، وتحامى دونه أسدَّ محاماة ، إن شاء الله ، والسلام .

١٠ — وكتب أيضا :

كتابنا أبقاكم الله ، وأكرمكم بتقواه ، ويسَّركم لما يرضاه ، ووفر حظوظكم من نعماه وحسناه ، من حضرة مراكش حرسها الله فى تاريخ كذا عند ما ورد كتابكم الأثير ووقفنا على معانيه ، [١٨٢] وأحطنا علما بمجمل قولكم ومفصله فيه ، ونحن بما سبق من انقطاعكم إلينا وتأميلكم لنا عارفون ، وبحقه — مراعاةً لكم وتحفِّياً بكم — مُوفون ، لا نغفل مرادكم ، ولا نتوا كل فيما يقوى أعضادكم ، ويوهن قوى من كادكم ، إن شاء الله عز وجل ، وهو ولى أحوالكم يصلحها ، وأعمالكم ينجحها لا رب سواه ، وقد أنفذنا إليكم صكا يصلكم

(١) فى الأصل : أبى .
(٢) لعل الأصح : نقابله ، أو : يقابل بصيغة المبنى للمجهول .

صحبة جوابنا هذا تحملون فيه على ما تضمن كتاب بيعتكم ، لا يخالف بكم عنه ، ولا تخرجون فى دقيق من الأمور ولا جليل عن سبيله ، والله ولى جانبكم يحميه ، وما فيه مَزَاحُ عللكم يُسَنِّيه ، بمنه ويمنه ، والسلام .

١١ — وكتب أيضا عنه :

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ، واستعملكم فيما يرضاه ، وحملكم على أقرب سبيله إلى حسناه ، من حضرة مراكش حرسها الله ، عقب ذى الحجة سنة تسع وتسعين وأربعمائة عن أحوال سامية ، وأعمال على سوق النجاح قائمة ونامية ، والحمد لله رب العالمين ، وقد وردنا كتابكم الأثير من قبل الفقيه الأجل أبى فلان ، والفقيه القاضى أبى فلان ، والفقيه أبى فلان وسلمهم ، فوقفنا على ما وعاه ، وأحصينا ما أودعتموه إياه ، ولم يمر على سمعنا فصل من فصوله إلا تأملناه ، وخرج لنا مناولوه — أبقاهم الله — عَمَّا كان لديهم وأبْدَأوا وأعادوا فيه ونحن مصغون إليهم ، مقبلون عليهم ، وقد كان الأمير أبو الطاهر أخونا الأعز علينا — أدام الله عزه — تقدم لنا بين يدى ذلك بجلاء تلك الأحوال فى مناصِّها ، وعرض ما تستدعيه من الأعمال عامها وخاصها ، وما كنا بذلك جاهلين ، ولا عنه غافلين ، وإنَّا بما قبلكم لمهتبلون ، وإلى ما يلم الشعث ويرم المنتكث لديكم ناظرون ، وفيما نرجو به الصلاح الشامل لكم عاملون ، ويعلم الله الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا تنطوى دونه سريرة ولا علانية ، [٨٢ ب] ولا تفوت إحاطته قاصية ولا دانية — أنا لا نألو من قلَّدنا الله أمورهم من المسلمين نصرة ، ولا ندخرهم — حيث كانوا — نظراً فيما يحوطهم وعملا بما يصلحهم قدرة ، وحسبنا الله معينا بأعباء ما حملناه ، ومنتهضا إلى ما يقتضى وفور الحظ من قبوله ورضاه ، ولا معين غيره ولا منتهض سواه ، وها نحن — أبقاكم الله — فى تلافى ما أشرتم إليه آخذون ، وعلى ما يسد الخلل

ويربح العمل عندكم عاطفون ، وبه — دون كل مهم — مبتدئون ، ولا عمل لنا بعد من سميناه من أعلامكم — أبقــاهم الله — غير ذلك : إليه نغدو ونروح ، وبه نقوم ونقعد ، وعما قليل ينصات لكم الأمل ، ويفضى إليكم بما استدعيتموه العمل ، إن شاء الله ، وعند أعيانكم المتقدمى الذكر أبقاهم الله ، وتولاهم وإياكم بحسناه ، فى بسط ما قبضناه ، وتفصيل ما أجملناه ، بما يوردونه عليكم ، ويلقونه حسبما تَلَقَّوه إليكم ، فاسمعوه منهم ، وعوه عنهم ، واسكنوا إليه ، واطمئنوا به ، والله ولى التأييد ، والملىّ بالصنع الحميد ، لا إله إلا هو عزَّ وتعالى ، والسلام .

١٢ — وكتب أيضا عنه :

كتابنا أطال الله فى طاعته عمرك ، وأعز قدرك ، وأجرى على ما تتخير وحسبما تؤثر أمرك ، من فلانة سنة كذا ، عن أحوال صالحة ، وأعمال مع النجاح غادية ورائحة ، والحمد لله رب العالمين ، وقد وردنا كتابك الأثير المؤرخ بمستهل ذى القعدة الموفى بين يدى الشهر المذكور ، فاجتليناه وتصفحناه ، وأتينا على مجمل ومفصل ما وعاه ، ولم نتجاوز حرفا إلى ما بعده حتى تأملناه ، وأحطنا علماً بفحواه ونجواه ، وألقى إلينا الأمير أبو الطاهر أخونا الأعز علينا الأجل لدينا ، أدام الله عزه ، على ما يتأدى إليه بطول المشاهدة من أمور تلك الجهات فتوسمناه ، وصرنا — علماً به وتمثلا له — كأنا قد باشرناه وعاينَّاه ، وتلاه بمثل ذلك أبو عبد الله محمد [١٨٣] بن أبى [بكر[١] ؟] أبقاه الله ، ثم أصغينا إلى

---

(١) فى هذا الموضع بياض بالأصل ، وقد سبق أن أشرنا عند التعليق على هذه الرسالة (ص ١٤٩) أننا نرجح أن يكون تمام الاسم « أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن تاشفين اللمتونى » الذى كان ممن تولوا منصب القيادة فى منطقة شرق الأندلس فى هذا الوقت ، وقد سقنا حججنا على ذلك فى موضعه .

الأعيان الجلة أعلام حضرة بلنسية أدام الله حراستها وأبقاهم ، والواردين معهم من تلقاء يحيى بن تاشفين ومحمد بن تومرت سامها الله وأكرمها[١] بتقواه ، فخرجوا إلينا عما كان عندهم ، وجدوا فى بيانه لنا وجلائه علينا جدهم ، وكل ذلك وعينا دقه وجله ، وتأملنا وعره وسهله ، ويعلم الله عز وجل أنا بأحوال تلكم الجهات مهتبلون ، ولمجارى الأمور بها مخيّلون ، ولارتباكها بما أحاط بها من طوائف الأعداء متأملون ، وإلى كل ما عسى أن تنحى به عليها المخالب ناظرون ، لا يخفى علينا شيء من ذلك ، ولا يزال فكرنا يطلع من تلك الثنايا ويتعسف تلك المسالك ، ومالنا — والله الشاهد — إلا النظر فى كل ما تتمهد به هناك الأوساط وتحتمى الأطراف ، وتتحصن الغِرَّات ويرتفع المخاف ، إن شاء الله تعالى ، فاعلم ذلك العلم اليقين ، واستوضح حقيقته كما تستوضح الصبح المبين ، وها نحن فيه آخذون ، وبه عاملون ، وإلى الله عز وجل نسند فيما نحاول وبه نستعين ، وأنت — أبقاك الله — فى تلك السبيل بمثابة بِرٍّ ، وعلى مظنة أجر ، فاستقبل فى أعمالك وجه الله ، واعتمد مصالح المسلمين فى كل ما تتولاه ، والله يصل يدك ، ويسهل مقصدك ، ويسعد يومك ويجعل أسعد منه غدك ، بمنّه ويمنه . وقد ذكر لنا أبو فلان حسن مجراك وجميل مكارمتك له وأتبع ذلك شكراً جزيلا ، وأضاف إليه حمدا عريضا طويلا ، وما فعلت معه — أبقاك الله — فمعنا فعلته ، وما أجملته لديه فلدينا أجملته ، وإنا لشاكروك على ذلك كشكره ، وناشرو محاسنك نحو نشره ، وقادرو معتقدك المبرور فيه وفق قدره ، والله يبارك لنا فيك ، ويجعل عليك واقية تقيك ، ولا يخليك من التوفيق فى جميع مناحيك ، إنه على ما يشاء قدير ، والسلام .

(١) كذا ، ولعل الصواب « سلمها الله وأكرمها » .

١٣ ــ وكتب عنه أيضا :

[٨٣ ب] كتابنا أبقاكم الله وسلمكم ، ووقاكم الأسواء(١) وعصمكم ، وتولاكم بإحسانه وأكرمكم ، من حضرة مراكش حرسها الله يوم الأربعاء من محرم سنة خمسمائة ، ونحن نوصيكم بتقوى الله تعالى واعتماد ما فيه الرضا ، واجتناب ما يخل بمن أتاه فى الدنيا والأخرى ، وأن تكونوا لواليكم أبى محمد عبد الله بن محمد(٢) — أبقاه الله وأعزه — على طاعة صحيحة ، ونفوس محضة صريحة ، ما أمركم به أتيتموه ، وما نهاكم عنه تركتموه ، لا تختلفون فى حال يأتيها من مصالح المسلمين ومضار المشركين عليه ، ولا تتلكئون دونه فى سهل ولا وعر عمَّا ينوبكم إليه ، وحسبنا هذا بيانا لكم ، وتقدما بالوصاة إليكم ، فكونوا من القبول والاحتمال على الجنس الجميل فى الحد الذى يكون عليه من يشفق على حاله ، ويجرى إلى ما فيه حسن عاقبته ومآله ، وما بلغنا عنكم إلا خير ، لكن أردنا التأكيد ، والله ولى التسديد ، والمليُّ بالصنع الحميد ، لا إله إلا هو ، والسلام .

١٤ ــ وكتب أبو القاسم ابن الجد عن أمير المسلمين يستدعى الكاتب ابن أزرق للكتابة :

كتابنا أبقاك الله ، وأعزك بتقواه ، ويسَّرك لما يرضاه ، وأسبغ عليك عوارف نعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله فى الثالث عشر من محرم سنة

---

(١) فى الأصل : الأسماء .

(٢) ذكرنا فى التعليق على هذه الرسالة (ص ١٥٢) أن الأرجح هو أن يكون المقصود « أبا محمد بن فاطمة » القائد المرابطى المشهور .

أربع عشرة وخمسمائة ، وقد ذكر لنا وقدر قِبَلَنا من زكاء خلالك ، واعتدال أحوالك ، ما بعث على استجلابك واستكتابك ، ودعا إلى استقدامك واستخدامك ، فإذا وصل إليك كتابنا هذا فانظر فى الحركة نحونا والنقلة ، واستشعر الخير والخيرة فى الرحلة ، واحفز نفسك فى الوصول إلينا ، والقدوم علينا ، إن شاء الله .

١٥ — وكتب فى الرفق بالرعية[1] :

[١٨٤] كتابنا أطال الله فى طاعته عمرك ، وأعز بتقواه قدرك ، وشد فيما تتولاه أزرك ، وعضد بالتوفيق والتسديد أمرك ، من حضرة مراكش حرسها الله ، وقد رأينا والله ولى التوفيق ، والهادى إلى سواء الطريق ، أن نجدد عهدنا إلى عمالنا — عصمهم الله — بالتزام أحكام الحق ، وإيثار أسباب الرفق ، لما نرجوه فى ذلك من الصلاح الشامل ، والخير العاجل والآجل ، والله تعالى ييسر[2] لما يرضيه من قول وعمل بمنه ، وأنت — أعزك الله — ممن يستغنى بإشارة التذكرة ، ويكتفى بلمحة التبصرة ، لما تأوى إليه من السياسة والتجربة ، فاتخذ الحق إمامك ، وأجْرِ عليه فى القوى والضعيف أحكامك ، وارفع لدعوة المظلوم حجابك ، ولا تسُدَّ فى وجه المضطهد المهضوم بابك ، ووَطِّىء للرعية — حاطها الله — أكنافك ، وابذل لها إنصافك ، واستعمل عليها من يرفق بها ، ويعدل فيها ، واطَّرِح كل من يحيف عليها ويؤذيها ، ومن سبب عليها

(١) لم ينص جامع الرسائل على اسم من وجهت إليه هذه الرسالة ولا تاريخها ، على أن هذه الرسالة وردت فى مرجعين آخرين هما « قلائد العقيان » لابن خاقان ص ١١٣ ، و « البيان المغرب » (الجزء المرابطى) ورقة ٢٨ ، ومن هذين المرجعين نعرف أنها وجهت إلى أبى محمد عبد الله بن محمد ابن فاطمة ، ويضيف ابن عذارى إلى ذلك أنها كتبت فى سنة ٥١٠

(٢) فى القلائد والبيان : ييسرنا .

من عمالك زيادة ، أو خرق فى أمرها عادة ، أو غيَّر رسما ، أو بدَّل حكما ، أو أخذ لنفسه درهما ظلما ، فاعزله عن عمله ، وعاقبه فى بدنه ، وألزمه رد ما أخذ [متعديا إلى أهله ، واجعله نكالا لغيره ، حتى لا يقدم[1] منهم أحد] على مثل فعله إن شاء الله تعالى ، وهو ولىُّ تسديدك ، والملىّ بعضدك وتأييدك ، لا إله غيره ، ولا خير إلا خيره .

١٦ ــ وكتب موصيا[2] :

كتابنا عصمكم الله بتقواه ، ويسركم لمـا يرضاه ، وجنبكم ما يسخطه ويبعاه ، من حضرة مراكش حرسها الله ، وقد اتصل بنا أنكم من مطالبة فلان على أولكم ، وفى عنفوان عملكم ، وأنه لا يعدم تشغيبا وتأليبا من قبلكم ، فإلى متى تلحون فى الطلب ، وتجدون فى الغلب ، وتقرعون [٨٤ ب] النبع بالغرب ؟ لقد آن لحركتكم فيه أن تهدأ ، وللنائرة بينكم أن تطفأ[3] ، ولذات بينكم أن تنصلح[4] ، ولوجوه المراشد بينكم أن تتضح ، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتركوا سابقة[5] الهوى ، واسلكوا معه الطريقة المثلى ، ودعوا التنافس على حطام الدنيا ، وليقبل كل واحد منكم على ما يعنيه ، ولا يشتغل بما ينصبه ويُعَنِّيه ، ولا بد لكل عمل من أجل ، ولكل ولاية من غاية ، ولن يسبق شىء أناه ، وإذا أراد الله أمراً سنَّاه ، « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير

(١) سقطت هذه الكلمات من الأصل ، واستكملناها عن القلائد والبيان .

(٢) أورد ابن خاقان هذه الرسالة فى « القلائد » (ص ١١٣ ــ ١١٤) ونص على أنها وجهت عن على بن يوسف إلى أهل غرناطة فى يوم الجمعة التاسع عشر من شهر الصوم المعظم سنة ٥٠٧

(٣) فى القلائد : لجمرتكم فيه أن تطفأ ، وللنائرة بينكم أن تهدأ .

(٤) فى الأصل : تصلح ، وقد أثبتنا ما جاء فى القلائد .

(٥) فى القلائد : متابعة .

لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[١] ، وفقكم الله لما فيه صون أديانكم وأعراضكم ، وسدد[٢] جميع أنحائكم وأغراضكم بمنه ، والسلام .

١٧ — وكتب بولاية ميورقة :

كتابنا أبقاك الله ، وأعزك بتقواه ، وأناف بك على ما تتمناه ، من حضرة مراكش — حرسها الله — لتسع بقين من ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة عندما ورد علينا الخبر اليقين بموت أبى السداد رحمه الله ، ورأينا — والله الموفق للصواب — أن نوليك جميع ما كان يتولاه ، على أنا ما كنا أقررناه بميورقة — حرسها الله — إلا إقرار منعة ، وفى سبيل قلعة ، وغرضنا كان أن نولى عليها من يصلح من أعيان الرجال ، فإنها بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوق أمرها ، ويحوط أهلها ، فتولَّ ما وليناك منها ومن جميع ما كان تحت يد المذكور مضافا إليها بصدر منشرح ، وأمل منفسح ، واستشعر تقوى الله سرك وجهرك ، واجعلها عماد أمرك ، فعليها مدار الأعمال ، وبها صلاح الأحوال ، وحَسِّنْ فى أهل تلك الجزائر — جبرهم الله — سيرتك ، وأخلص فى النصح لهم والرفق بهم سريرتك ، وأكد فى إيثار [١٨٥] العدل فيهم وسلوك طريق الحق بهم بصيرتك ، وسَكِّنْ بلين الكلمة وحسن النصفة أحوالهم ، وارفع بحزمك وعزمك فى ضبط البلد أوجالهم ، واسْعَ بحسن سياستك فى استرجاع من خرج من جيرانهم ، واجتهد فى صرفهم إلى أوطانهم ، حتى يكثر بفضل الله عددهم ، وينجبر بلدهم ، وانظروا فى أمر الأسطول والمستخلص بدانية حرسها الله ، واستَنِبْ فى ذلك من ترضاه ، وإذا وصل إليك خطابنا هذا فلا تتوقف

(١) سورة البقرة ، آية ٢١٦
(٢) فى القلائد : وتسديد .

عن النفوذ نحوهم واللحاق بهم ، فإنهم مستوحشون بانفرادهم ، ثم لاسيا بما أحدثه السفيه المعتوه ابن أبى السداد من إيحاشهم وترويعهم ، وبوصولك إليهم يستقيم أمرهم ، ويذهب ذعرهم ، إن شاء الله تعالى ، والسلام .

١٨ – وكتب أيضا :

كتابنا أبقاكم الله وعصمكم بتقواه ، ووفقكم فى أقوالكم وأعمالكم لما يرضاه ، من فلانة عندما وصلت إلينا مراجعتكم عما كنا خاطبناكم فيه من اختيار رجل منكم يصلح لولاية القضاء عندكم ، ووقفنا منها على اختلافكم فى الرجلين المذكورين فى العقدين الواصلين من قبلكم ، فرأينا التوقف فى الأمر حتى يقع اتفاقكم ، وينعقد فى الاختيار إجماعكم وإصفاقكم ، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتفقوا على واحد ترضونه غير متنازعين فيه ، وخاطبونا باتفاقكم لنلقى الأمر بعد استخارة الله تعالى ، وإن استمر بكم الخلاف أخرجنا الأمر عنكم ، واجتهدنا فى الاختيار لكم إن شاء الله تعالى ، والسلام .

١٩ – وكتب أبو بكر ابن القبطرنه يحض على قتل الجراد :

كتابنا إليكم وفقكم الله من كذا ، وقد علمتم أن الجراد داء عضال ، وإن كان[١] — كما قالوا — من البحر نثرة[٢] ، فإنما هو جمرة ، تحرق البلاد ،

---

(١) فى الأصل : كانوا .

(٢) إشارة إلى حديث ينسب إلى رسول الله (صلعم) : « إن الجراد نثرة الحوت فى البحر » (انظر سنن ابن ماجه ٢/٢٩٣) .

وتجمع[١] البلاد ، وشأنها الفساد ، دعت اللهَ صارة[٢] أن يطعمها لحمًا لادم [٨٥ ب] فيه فأطعمها الجراد ، فقالت : اللهم أعشه بغير رضاع ، وتابع بينه بغير شياع[٣] ، فهى كذلك تثبت بالروضة فوق اليفاع ، ذبابها هزج يسُنُّ ذراعا بذراع[٤] ، قد نادمت الذراع[٥] ، ورقمها كف الثريا الصَّناع ، فهى ترقرق عليها للحَوذان لُعَاع[٦] ، فيتركها مُسْوَدَّةَ البقاع ، كأنما جرت عليها التى جعلها الله تذكرة وللمقوين متاع[٧] ، وينزل بالوادى قد امتلأ عُشُبا ، وطلعت أزهاره شهبا ، قد وشاه الربيع ودبج ، وخالط الخزامى فيه العرفج ، وجاده المِرْزَمُ والسِّماكُ جَوْدا ، فيتركه حَرَّةً

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل صحتها « وتجيع » .

(٢) هذه القصة التى يرويها الكاتب هنا عن صارة — ولعله يعنى بها سارة زوجة رسول الله ابرهيم عليه السلام — تروى فى أكثر المراجع عن مريم بنت عمران عليها السلام ، إذ يقال إنها هى التى نطقت بهذه العبارة ، وقد ساقها الدميرى نقلا عن البيهقى عن أبى أمامة الباهلى مسنداً إلى النبى (صلعم) ذلك الحديث (انظر حياة الحيوان الكبرى ١/٣٣٧) .

(٣) فى الأصل : وتابع دينه ، وقد صححناها عن كتب الحديث واللغة ، أما الشياع فقد فسره الدميرى فى الموضع الذى سلف ذكره بأنه الصوت ، وقال صاحب لسان العرب إن الشياع هو الدعاء بالإبل لكى تنساق وتجتمع كما يشايع الراعى بإبله لتجتمع ولا تتفرق عليه ، فكأنه شبه بهذا الصوت .

(٤) حل الكاتب فى هذه الجملة قسيم البيت المعروف لعنترة بن شداد العبسى (ديوان عنترة ص ١٤٥) :

هزجا يسن ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذم

(٥) الذراع نجم من نجوم الجوزاء على شكل الذراع ، وقيل يسمى ذراع الأسد وهما كوكبان نيران من منازل القمر .

(٦) الحوذان نبات له زهرة حمراء فى أصلها صفرة ، واللعاع كل نبت لين فيه ماء كثير لزج ، ونرى الكاتب هنا يشير إلى بيت ابن مقبل :

كاد اللعاع من الحوذان يسحطها . . . الخ (انظر لسان العرب تحت مادة لعاع) .

(٧) يريد بذلك كأنما أتت عليها النار ، وهو يشير إلى الآيات القرآنية الكريمة ﴿أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين *﴾ (سورة الواقعة ، آيات ٧١ — ٧٣) ، ومعنى الآيات أن الله سبحانه وتعالى خلق النار تذكرة للنار الكبرى نار جهنم ليتعظ بها المؤمنون ، ومتاعا أى منفعة للمقوين أى المسافرين ، إذ أن المقوى هنا هو نازل القواء أى البلد القفر ؟ هذا ونلاحظ أن التزام السجع قد اضطر الكاتب إلى تغيير ضبط كلمة « متاع » الأخيرة إذ كان ينبغى أن تكون « متاعاً » .

سَوْدَا ، لا يجد فيها الضبُّ عَرَادًا[1] ، ولا النِّيبُ[2] أراكا ولا قتادا ، ولا تطعم فيه الحُبَارَى راء[3] ، ولا الظليم تَنُوماً وآءَ[4] ، ولا يَسْتَحْلِسُ فيها سَعْدَانة[5] ، ولا يجد بعير صِلِّيانة[6] ، فراشة محقورة ، تجتمش النجم اجتماش النُّورة[7] ، وقد نزل منه رِجْل[8] بموضع كذا ، فإن تركتموه أرداكم ، فتعشوه قبل أن يتغداكم ، وانفروا إليه وبالله العون ، واعلموا أنه أعظم ما أنزل من العذاب على آل فرعون ، حتى خرقت ثيابهم ، وأكلت مساميرهم وأبوابهم ، فأخرجوا إليه الجمّ[9] الغفير ، ولا يتخلف الكبير منهم ولا الصغير ، ولا يأو[10] أحد منكم فِرَاشه ، حتى تحرقوا فَرَاشه ، وتبيدوا[11] آثاره ، ولا تكونوا كأبى حِسْل[12] الذى أجاره ، فإن فعلتم غمر الغامر[13] ، وكنتم كمجير أم عامر[14] ، فجدوا فى إطفاء هذا الجمر ، ولا تتهاونوا بهذه الصفر ، التى تكنى أم عمرو ، والسلام .

---

(١) العراد شجرة من شجر البادية صلبة العود منتشرة الأغصان ، وهى شجرة يألفها الضب ، ويقصد : أصبحت الأرض مقفرة لا يكاد الضب يجد فيها نبتا يصلح له .

(٢) فى الأصل : الينب ، والنيب جمع ناب وهى الناقة المسنة ، والأراك والقتاد مما ترعاه الابل .

(٣) الراء شجيرة جبلية ، والحبارى ضرب من الطير ، وإنما أشار إليها الكاتب لأنها أبعد الطير نجعة .

(٤) فى الأصل : . . . وراء ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، والظليم ذكر النعام ، والتنوم والآء شجر من مراتع النعام ، وفى هذه العبارة إشارة إلى بيت زهير بن أبى سلمى فى وصف الظليم :

أصك مصلم الأذنين أجنى ... له بالسى تنـــوم وآء

(انظر ديوان زهير بشرح ثعلب الشيبانى ص ٦٤) .

(٥) يستحلس لعله يعنى بها يتحلس ، ويقال تحلس الشيء أى أصاب منه ، والسعدان نبت ذو شوك يعتبر من أطيب مراعى الابل .

(٦) الصليان نبت ترعاه الابل ، والعرب تسميه خبزة الابل .

(٧) النورة الشعر ، وتجتمش مشتقة من جمش الشعر أى حلقه أو إحراقه .

(٨) الرجل من الجراد الجماعة الكثيرة .

(٩) فى الأصل : الجما .

(١٠) فى الأصل : ويأوى .

(١١) فى الأصل : وشيدوا ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(١٢) أبو حسل كنية الضب .

(١٣) الغامر هو الخراب .

(١٤) أم عامر كناية عن الضبع ، وإجارة أم عامر كناية عن مسدى المعروف إلى غير أهله .

٢٠ – وكتب الفتح بن خاقان :

أطال الله بقاء الفقيه الأجل القاضى الأعدل قاضى القضاة للملة يبدى أعلامها ، ويبرئ آلامها ، قد أظهر الإسلام — أدام الله توفيقك — بك استبشارا ، واستشعر بعثا وانتشارا ، ورجا العدل نظم متناثره ، وإقالة عاثره ، وأطفأ ارتقابك جمر الباطل وأخمده ، وألبسه كآبته وكمده ، ولا شك [١٨٦] أنك تصرح الشوائب ، وترفع هذه النوائب ، وتسرع اللحاق ، وتطلع الحق كاملا بعد المحاق ، فأنت — والله يعضدك — الذى أحييت الدين بعد مماته ، وشفيته من ملماته ، وطلعت هاتكا لظاماته ، حتى غدا متهلل الجبين ، وبدا كالصبح المبين ، أيام توليتك تلك الأقطار ، وأهديت إليها نفس عهدك المعطار ، وهذا ميدان اجتهادك ، ومكان حجتك وجهادك ، والشر قد تشعبت طرقه ، والدين قد عظم غَصَصه بالباطل وشَرَقه ، والراح قد اسْتُحِلّ حرامها ، وَاسْتُسْهِلَ مرامها ، وغدت فى كل منزل قوتا ، وبدت كئوسها دُرًّا يحمل ياقوتا ، مع انتحاء أهل الذمة وانتزائهم ، وذلك أعظم مصائب المسلمين وأرزائهم ، وإذا كفيت قبيح هذا ومحاله ، فقد بلغ هديك محِله ، ورميت الجمرة ، وأتممت الحج والعمرة ، وشفيت الملة من إشفائها ، وأوضحت آثارها بعد عفائها ، وقد نهض فلان الطالع عليك من ربى الصدق وثنيّاته ، الصادع لك بالحق وآياته ، الذى لا تلهيه الأعراس والولائم ، ولا يزدهيه العيش الملائم ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وهو يورد عليك ما ينبذ به الكسل ، وتُشْحَذ به الصوارم والأسل ، وفى الحضرة أعيان يصلون يدك بأيديهم ، ويستأصلون لك شأفة معتديهم ، وان تعدم منهم عونا يرضيك ، وعضدا يشيمك فى ذات الله ويقتضيك ، إن شاء الله ، والسلام .

٢١ – وكتب غيره :

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم ، ووقاكم المحاذير وعصمكم ، ووصل بموفور مزيده آلاءكم وقسمكم ، من حضرة غرناطة حرسها الله [٨٦ ب] عن أنفس مملوءة ثَلَجا ، وأنباء سارة ملأت الأرض أرجا ، ولم تدع فى قناة الدين أمتا ولا عِوَجا ، لله على ذلك من المحامد أعمها ، وهو ولىّ منحه الحافلة يكملها ويتمها ، وشرح ذلك مضم نسخة اندرجت طيه منقولة من كتاب أبى عبد الله محمد بن يسير(١) أعزه الله وأكرمه بتقواه وازنته وصفا ، وقابلته حرفا حرفا ، أبدى فيه عن صفة الصنع الجميل الجسيم ، والفتح الوسيم ، الذى منحه الله فى الكافرين أعدائه ، المكذبين رسله الملحدين فى أسمائه ، وقد طيّرنا بها مسرعين ، وتقدمنا بها إلى أسماعكم ممتعين ، لتتحققوها جلاء ، وتتدافعوا المسرة بها ولاء ، وتحمدوا الله على هذه المنحة الواقعة ، والبشرى الناجمة الطالعة ، التى ملأت العيون قرة ، وطلعت فى جبين الدهر غرة ، وبعثت للدين وأهله جذلا ، وأوضحت من المسرات فصولا وجملا ، ولتأخذوا من ذلك بأوفر نصيب ، وترتعوا منه فى جناب مريع ومرعى خصيب ، فأنتم الأولياء والأشياع ، ولكم الانجذاب المحقق والنزاع ، فإذا طلع بحول الله عليكم ، ومدت هذه المسرة خطوها إليكم ، أعلن بقراءته فى المسجد الجامع ، حيث يكون مطمح الأبصار ومصغى المسامع ، حتى يستوى فى اجتلائه الأبعد والأدنى ، وتتلاحق الأفراح فيه من هنا ومن هنا ، وإنه لكما ترون من أحسن ما تطالع به النفوس وتهنا ، وارتقبوا أمثالها مع الأنى ، وعلى التتابع والولا ، وارفعوا أيديكم إلى بارئكم جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، فى أن يجعلها نسقا ، ويذر الشرك وأهله لقى ، ويوطئهم من آرائهم الوخيمة صعيدا زلقا ، [١٨٧] فهو ولىّ ذلك يصحبه القبول ، والصنع الجميل والفتح الموصول ، بعزته لا ربَّ غيره ولا معبود حاشاه ، والسلام .

---

(١) لم أهتد إلى التحقق من شخصية ابن يسير هذا .

٢٢ — وكتب أبو حفص ابن برد فى الاصطلاح بين قبيلتين[١] :

أما بعد ، فإن أفضل ما تناجى به المسلمون ووجهوا أبصارهم إليه ، وصححوا نياتهم فيه ، ولم يلوهم لاوٍ عنه ، ولا لفتهم لافت دونه ، وما قَرَّب من رضا الله تعالى و بَعَّد من سخطه ، وعمل فيه بأمره ، وأحصنت له[٢] خلافة رسوله عليه السلام فى أمته من الإصلاح بين المتحار بين منهم والمتحارسين[٣] فيهم وتحذيرهم ما فى سفك الدماء وتأريث[٤] الشحناء وتوكيد مِرَرِ الحُقود[٥] وإيقاظ عيون الحروب من فساد الدين ، ووهن[٦] اليقين ، وذهاب الرجال ، ونفاد الأموال ، واجتياح النعم ، واستنزال النقم ، قال الله عز وجل : ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس[٧] ﴾ وقال تقدس اسمه : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله[٨] ﴾ ، وقد علمتم أن الحرب مثكلة[٩] النفوس ، متلفة الأموال ، مندمة فى العواقب والمآل[١٠] ،

(١) جاء بعض هذه الرسالة فى الذخيرة لابن بسام ، ق ١ — ٢/٢٩ — ٣٠
(٢) فى الذخيرة : واحتسب فيه .
(٣) كذا فى الأصل ، ولعلها « والمتحارشين » مشتقة من الحرش وهى تعنى إغراء الناس بعضهم ببعض والافساد بينهم ، ولم ترد هذه الكلمة ولا التى تليها فى الذخيرة .
(٤) فى الأصل : وتأثير ، وقد اخترنا ما جاء فى الذخيرة .
(٥) فى الأصل : العقود ، وقد آثرنا ما جاء فى الذخيرة .
(٦) فى الأصل : وهوى ، والتصحيح عن الذخيرة .
(٧) سورة النساء ، آية ١١٤
(٨) سورة الحجرات ، آية ٩
(٩) فى الأصل : مشكلة ، والتصويب عن الذخيرة .
(١٠) فى الذخيرة : مجلبة للندامة فى العواقب .

تلذ مباديها للأشرار ، وتلقى كلاً كل عواقبها[١] على الأخيار ، وقلما تقدح شعلها
ويغلى مرجلها إلا فراش الشر وذؤبان الطمع[٢]، ممن لا يحفل بعار ، ولا يستحيى
من فرار ، فإن هلك لم يفقد ، وإن نجا لم يحمد ، ثم ترتكس[٣] جماهير الناس
وأولو الذكر [والأعاظم أخطاراً ، والأحاسن آثاراً][٤] ، فى لجج تبعد عنها
السواحل ، ويبوءون بفوادح تنهد عنها الكواهل ، وأصح الناس لُبًّا وأنفذهم
نظرا وخيرهم احتسابا وأعلمهم بما حاز رضا الله وأحاط نفسه والمسلمين فيه من
حضّ[٥] على الصلح ، وندب إلى أُسى[٦] الجرح ، ولم يألُ [٨٧ ب] إرشاداً
وتبصيراً ، ومن سوء العواقب تخويفاً وتحذيرا ، وبادر نار الفتنة بالإطفاء ،
وعصب المتحاربين بالإرضاء[٧] ، وشوكة الحرب بالخضد ، فحقن الدم ، وحمى
الحرم ، وأوطأ[٨] النعم ، وأمّن الستور من الانحسار ، وضمائرها من الإجهار ،
ولا توفيق إلا بالله العلىّ العظيم ، والسلام .

---

(١) فى الذخيرة : عاقبتها .
(٢) فى الأصل : وتبقى مرجلها فراش الشر وديوان الطمع ، وقد آثرنا ما جاء فى الذخيرة .
(٣) فى الأصل : ترتكش ، وفى الذخيرة : ترتكص ، وما أثبتناه أقرب إلى الصحة والارتكاس فى الفتنة هو التقلب والتخبط فيها .
(٤) ما بين الحاصرتين زيادة جاءت فى الذخيرة .
(٥) فى الأصل : حط .
(٦) فى الذخيرة : إبراء .
(٧) فى الأصل : . . . بالإضاء ، وفى الذخيرة : وعصب المتحازبين بالارخاء .
(٨) فى الذخيرة : وأوطن .

مراجع البحث

المراجـع العربية :

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) :

— التكملة لكتاب الصلة (المجلدان الخامس والسادس من المكتبة الأندلسية) ، نشر فرانسسكو كوديرا ، مدريد ١٨٨٧ — ١٨٨٩

— المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى (المجلد الرابع من المكتبة الأندلسية) ، نشر فرانسسكو كوديرا ، مدريد ١٨٨٥

— الحلة السيراء ، نشر رينهارت دوزى تحت عنوان :
Notices sur quelques manuscrits arabes, ed. Leyden, 1847—1851.

ابن أبى زرع (أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم) :

— الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ط. الرباط سنة ١٩٣٦ فى ثلاثة أجزاء .

ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم) :

— الكامل فى التاريخ ، ط. القاهرة سنة ١٣٤٨ — ١٣٥٣ (١٩٢٩ — ١٩٣٤) .

ابن بسام (على بن بسام الشنترينى) :

— الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة :
القسم الأول فى مجلدين ، ط. كلية الآداب بجامعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٢
القسم الثانى (نسخة مصورة من مخطوطة بغداد) .
القسم الثالث (مخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد — مجموعة المستشرق باسكوال دى جايانجوس رقم ١٢) .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن أحمد بن عبد الملك) :

— الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم وفقهائهم ومحدثيهم ، نشر فرانسسكو كوديرا ، ط. مدريد سنة ١٨٨٢

البيذق (أبو بكر الصنهاجى) :

— كتاب أخبار المهدى وابتداء دولة الموحدين ، نشر ليفى بروفنسال ، ط. باريس سنة ١٩٢٨ ، مع ترجمة فرنسية ومقدمة تحت عنوان : *«Documents inédits d'histoire almohade»*

ثعلب الشيبانى (أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد) :

— شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٤

الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية :

— لمؤلف مجهول ، نشر الأستاذ أحمد عاوش ، ط. الرباط سنة ١٩٣٦ (وانظر كذلك أويثى).

الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) :

— جذوة المقتبس ، نشر الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، ط. القاهرة سنة ١٩٥٢

الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) :

— صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار) نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، ط. القاهرة سنة ١٩٣٧ مع مقدمة وترجمة فرنسية تحت عنوان :
La Péninsule Ibérique au moyen-age d'après le Kitāb ar-Rawḍ al-Mi'ṭār, ed. Leiden, 1838.

ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله السلمانى) :

— الإحاطة فى أخبار غرناطة :
نشر محب الدين الخطيب فى جزأين ، القاهرة سنة ١٣١٩ هـ.
نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة سنة ١٩٥٥
مخطوطة الاسكوريال ، رقم ١٦٧٣

— أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، ط. بيروت سنة ١٩٥٦

ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد) :

— العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط. القاهرة فى سبعة أجزاء ، سنة ١٢٨٤ هـ. (١٨٦٧م.)

ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن ابرهيم) :

— وفيات الأعيان ، نشر الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد (فى ستة أجزاء) ، ط. القاهرة سنة ١٩٤٨

ابن خير (أبو بكر محمد بن خير الإشبيلى) :

— فهرسة ما رواه عن شيوخه (المجلدان التاسع والعاشر من المكتبة الأندلسة) ، نشر الأستاذين فرانسسكو كوديرا وخوليان ريبرا ، ط. مدريد ١٨٩٣ — ١٨٩٥

ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن الحسن الكلبى) :

— المطرب من أشعار أهل المغرب ، نشر الأساتذة ابرهيم الابيارى والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد بدوى ، ط. القاهرة سنة ١٩٥٤

الدميرى (كمال الدين) :

— حياة الحيوان الكبرى ، جزءان ، ط. القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ.

ابن سعيد المغربى (على بن موسى بن عبد الملك) :

— المغرب فى حلى المغرب ، نشر الدكتور شوقى ضيف ، ط. القاهرة فى جزأين ، سنة ١٩٥٢ — ١٩٥٥

— رايات المبرزين وغاية المميزين ، نشر الأستاذ إميليو غرسيه غومز مع مقدمة وترجمة إسبانية ، ط. مدريد سنة ١٩٤٢ تحت عنوان : «El libro de las banderas de los campeones»

السلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) :

— الاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى ، ط. الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ — ١٩٥٦ فى عشرة أجزاء .

الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) :

— بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، المجلد الثالث من المكتبة الأندلسية ، نشر الأستاذ فرانسسكو كوديرا ، مدريد سنة ١٨٨٤ — ١٨٨٥

عبد الواحد المراكشى :

— المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، نشر الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العلمى ، ط. القاهرة سنة ١٩٤٦

ابن عذارى المراكشى :

— البيان المغرب فى أخبار المغرب ، الجزء الثالث (الخاص بملوك الطوائف فى الأندلس) ، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، باريس سنة ١٩٣٠

— البيان المغرب (الجزء الرابع الخاص بدولة المرابطين ، مخطوطة الأستاذ أمبروسيو أويثى) .

ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) :

— شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط. القاهرة (مكتبة القدسى) ، سنة ١٣٥٠ هـ.

عنترة بن شداد العبسى :

— شرح ديوان عنترة ، بتحقيق الأستاذ عبد المنعم عبد الرءوف شلبى ، ط. المكتبة التجارية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

الفتح بن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى) :

— قلائد العقيان ، ط. القاهرة سنة ١٢٨٣ (١٨٦٦) .
— مطمح الأنفس ، ط. القاهرة سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧) .

ابن فرحون (برهان الدين ابرهيم بن على بن محمد) :

— الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، ط. القاهرة سنة ١٣٥١ (١٩٣٢) .

ابن القاضى (أحمد بن محمد بن أبى العافية) :

— جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، طبعة حجرية بمدينة فاس سنة ١٣٠٩هـ.

ابن القطان :

— نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، المجلد الثالث عشر منه ، نسخة خطية كانت لدى الأستاذ ليفى بروفنسال .

القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله) :

— صبح الأعشى فى كتابة الإنشا ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة ١٩٢٢

ابن الكردبوس :

— كتاب الاكتفا فى أخبار الخلفـا (مقتطفات منه مترجمة إلى الانجليزية بقلم الأستاذ باسكوال دى جايانجوس Pascual de Gayangos تحت عنوان : *«Extracts from the historical work entitled Kitabu-l-Iktifá fi Akhbári-l-Kholafá»*.
وقد جعل جايانجوس هذه الترجمة من ملحقات ترجمته الانجيزية لكتاب نفح الطيب للمقرى :
The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, vol. II, London, 1843, Appendix C.

ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزوينى) :

— سنن المصطفى ، فى جزأين ، ط. القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى) :

— نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، فى عشرة أجزاء ، نشر الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ، ط. القاهرة سنة ١٩٤٩

النباهى (أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن الجذامى المالقى) :

— تاريخ قضاة الأندلس المسمى بـ « كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » ، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة سنة ١٩٤٩

نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى :

— منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، لمؤرخ مجهول ، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، ط. الرباط سنة ١٩٣٤

ياقوت الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله) :

— معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) نشر الدكتور أحمد فريد رفاعى ، ط. القاهرة فى عشرين جزءاً ، سنة ١٩٢٢ — ١٩٣٨

المراجع الأوربية :

Bosch Vila, Jacinto: *Los Almorávides,* ed. Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Arabe, Tetuán, 1956.

Brockelmann, Carl: *Geschichte der Arabischen Literatur.* Leyden, 1943.

Campaner y Fuertes, Alvaro: *Bosquejo histórico de la dominación islamita en las Islas Baleares,* Palma de Mallorca. 1888.

Codera, Francisco: *Decadencia y desaparición de los almorávides,* vol. III de la Colección de Estudios Críticos de Historia Arabe Española, Zaragoza, 1899.

Familia real de los Benitexufin, en el vol. IX de la Colección de Estudios Críticos de Historia Arabe Española, páginas, 75-165, Madrid, 1917.

Dozy, Reinhardt: *Scriptorum arabum Loci de Abbadidis,* Leyden, 1846-1853.

Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, éd. [3], Leyden, 1881.

Supplément aux dictionnaires arabes, París — Leyden, 1927.

García Gómez, Emilio: *Un eclipse de la poesía en Sevilla. La época almorávide,* Madrid, 1945.

Huici Miranda, Ambrosio: *Historia política del imperio almohade,* vol. I, ed. Tetuán, 1956.
Las grandes batallas de la Reconquista durante las invasiones africanas, Madrid, 1956.
«Al-Ḥulal al-mawšiyya», crónica árabe de las dinastías almorávide, almohade y benimerin, traducción española, Tetuán, 1951.

Lévi-Provençal, E.: *Histoire de l'Espagne Musulmane,* vol. IIIe, París, 1953.

Nykl, A. R.: *Hispano-Arabic Poetry,* Baltimore, 1946.

Pons Boigues, Francisco: *Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y geógrafos arábigo-españoles,* Madrid, 1898.

Prieto y Vives, Antonio: *Los reyes de taifas,* Madrid, 1926.

Simonet ,Francisco Javier: *Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los mozárabes,* Madrid, 1888.

De Slane, M. G.: *Histoire des Berbères,* ed. Paul Casanova, París, 1925-1934, 3 vols.